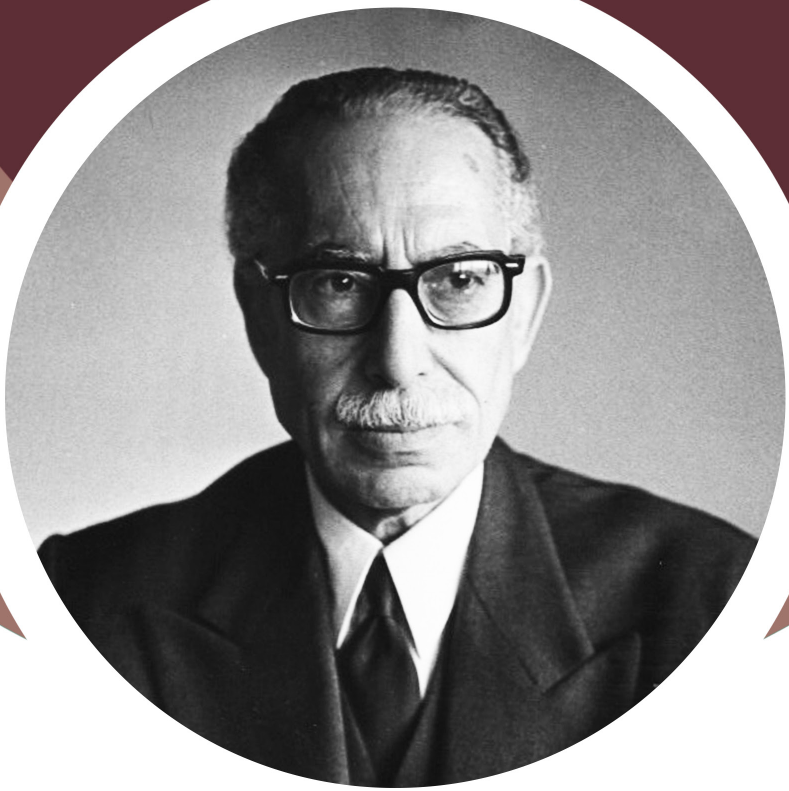

أرني اللّٰه

توفيق الحكيم

أرني الله

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

أرني الله

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٤ ٣٢٥٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

أرني الله	٧
الشهيد	١١
مُوزِّع البريد	١٩
أنا الموت!	٢٣
وكانت الدنيا!	٣٣
دولة العصافير!	٤١
في سنة «مليون»	٤٥
الاختراع العجيب!	٥٥
الأسطى عزرائيل!	٥٩
معجزات وكرامات!	٦٣
مؤتمر الحب!	٦٩
امرأة غلبت الشيطان!	٧٣
الحبيب المجهول!	٧٧
في نخب «العصابة»!	٨٥
أسعد زوجين!	٨٩
اعترف القاتل!	٩١
ميلاد فكرة!	٩٩
وجه الحقيقة	١٠٣

أرني الله

كان في سالف العصر والأوان رجل طيب السريرة، صافي الضمير، رزقه الله طفلًا ذكي الفؤاد ذلق اللسان، فكانت أمتع لحظاته ساعة يجلس إلى طفله يتحادثان كأنهما صديقان، فيلحظ كأن فارق السن وفاصل الزمن ارتفع من بينهما كستارة وهمية من حرير؛ فإذا هما متفقان متفاهمان، لهما عين العلم وعين الجهل بحقائق الوجود، وجواهر الأشياء.

نظر الرجل يومًا إلى طفله، وقال: شكرًا لله! أنت لي نعمة من الله!

فقال الطفل: إنك يا أبتِ تتحدث كثيرًا عن الله، أرني الله!

– ماذا تقول يا بُني؟!

لفظها الرجل فاغر الفم، ذاهل الفكر، فهذا طلبٌ من الطفل غريبٌ لا يدري بمَ يجيب عنه. وأطرق مليًّا، ثُم التفت إلى ابنه مُردِدًا كالمخاطب نفسه: تريد أن أُريك الله؟

– نعم، أرني الله!

– كيف أُريك ما لم أرَه أنا نفسي؟!

– ولماذا يا أبتِ لم ترَه؟

– لأني لم أفكِّر في ذلك قبل الآن.

– وإذا طلبت إليك أن تذهب لتراه ثُم تُريني إيَّاه؟

– سأفعل يا بُني، سأفعل.

ونهض الرجل، ومضى لوقته وجعل يطوف بالمدينة يسأل الناس عن بُغيته، فسخروا منه، فهم مشغولون عن الله ومشاهدته بأعمالهم الدنيوية، فذهب إلى رجال الدين فحاوروه وجادلوه بنصوصٍ محفوظة، وصيَغ موضوعة فلم يخرج منهم بطائل، فتركهم يائسًا ومشى في الطرقات مغمومًا يُسائل نفسه: أيعود إلى طفله كما ذهب خاوي اليد مِمَّا طلب؟

وأخيرًا عثر بشيخ قال له: «اذهب إلى طرف المدينة تجدْ ناسكًا هرِمًا لا يسأل الله شيئًا إلَّا استجاب له، فربما تجد عنده بُغيتك!»

فذهب الرجل توًّا إلى ذلك الناسك وقال له: جئتك في أمر أرجو ألَّا تردَّني عنه خائبًا.

فرفع إليه الناسك رأسه بصوت عميق لطيف: اعرض حاجتك!

– أريد أيُّها الناسك أن تُريني الله!

فأطرق الناسك وأمسك لحيته البيضاء بيده، وقال: أتعرف معنى ما تقول؟

– نعم، أريد أن تُريني الله!

فقال الناسك بصوته العميق اللطيف: أيُّها الرجل! إن الله لا يُرى بأدواتنا البصرية، ولا يُدرَك بحواسِّنا الجسدية؛ وهل تسبر عمق البحر بالإصبع التي تسبر عمق الكأس؟!

– وكيف أراه إذَن؟

– إذا تكشَّف هو لروحك!

– ومتى يتكشَّف لروحي؟

– إذا ظفرت بمحبته.

فسجد الرجل وعفَّر الترابُ جبهتَه، وأخذ يد الناسك وتوسَّل إليه قائلًا: أيُّها الناسك الصالح، سل الله أن يرزقني شيئًا من محبته!

فجذب الناسك يده برفق، وقال: تواضعْ أيُّها الرجل واطلب قليل القليل!

– فلْأطلب إذَن مقدار درهمٍ من محبته.

– يا للطمع! هذا كثير، كثير!

– ربع درهمٍ إذَن؟

– تواضعْ! تواضعْ!

– مثقال ذرةٍ من محبته.

– لا تُطيق مثقال ذرةٍ منها!

– نصف ذرةٍ إذَن؟

– ربما.

ورفع الناسك رأسه إلى السماء، وقال: يا رب، ارزقه نصف ذرةٍ من محبتك!

وقام الرجل وانصرف. ومرَّت الأيام، وإذا أسرة الرجل وطفله وأصحابه يأتون إلى الناسك، ويفضون إليه بأن الرجل لم يعد إلى منزله وأهله منذ تركه، وأنه اختفى ولا يدري أحد مكانه، فنهض معهم الناسك قلقًا، ولبثوا يبحثون عنه زمنًا إلى أن صادفوا جماعة من

الرعاة قالوا لهم: إن الرجل جُنَّ وذهب إلى الجبال، ودلوهم على مكانه فمضوا إليه، فوجدوه قائمًا على صخرة شاخصًا ببصره إلى السماء، فسلَّموا عليه فلم يرد السلام، فتقدَّم الناسك إليه قائلًا: انتبه إليَّ، أنا الناسك، فلم يتحرَّك الرجل، فتقدَّم إليه طفله جزعًا، وقال بصوته الصغير الحنون: يا أبتِ، ألا تعرفني؟

فلم يُبدِ حراكًا. وصاحت أسرته وذووه من حوله محاولين إيقاظه، ولكن الناسك هزَّ رأسه قانطًا، وقال لهم: لا جدوى! كيف يسمع كلام الآدميين مَن كان في قلبه مقدار نصف ذرةٍ من محبة الله؟ والله لو قطعتموه بالمنشار لما عَلِم بذلك!

وأخذ الطفل يصيح، ويقول: الذنب ذنبي أنا الذي سألته أن يرى الله!

فالتفت إليه الناسك، وقال وكأنه يخاطب نفسه: أرأيت؟ إن نصف ذرةٍ من نور الله تكفي لتحطيم تركيبنا الآدمي، وإتلاف جهازنا العقلي!

الشهيد

دقَّت أجراس الكنائس ونواقيس الكاتدرائيات احتفالًا بعيد الميلاد، وسرى رنينها في جسد روما كما يسري الروح العُلوي في أبدان الرُّهبان. في تلك اللحظة هبط المدينةَ شخصٌ غريبٌ يمشي نحو الفاتيكان، وهو يرهف السمع إلى تراتيل الأناجيل ترتفع في كل مكان: «العذراء تحبُل وتلد ابنًا، وتدعو اسمه يسوعًا لأنه يُخلِّص شعبه من خطاياهم.» وكانت أصوات الأرغن تحملها إلى أذنَيه صادحةً بألحان «أوراتوريو المسيح» لهاندل، و«أوتوريو الميلاد» لجوهان سباستيان. آيات من الموسيقى الدينية تُشيد كلها بعيسى؛ إذ جاء يحمل إلى الإنسانية، التي نخرت فيها الأنانية، ناموس الحب الذي يُطهِّرها من الآثام.

وبلغت التراتيلُ هذه الفقرةَ من الأناجيل: «قال له إبليس: إن كنت ابن الله، فقل لهذا الحجر أن يصير خبزًا. فأجابه يسوع قائلًا: أنْ ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله! فأخذه إبليس إلى جبل عالٍ وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه كلها إن خررت وسجدت لي. حينئذٍ قال له يسوع: اذهب يا شيطان، إنه مكتوب: «للرب إلهك تسجد، وإيَّاه وحده تعبد»!»

هنا انطلقت من الشخص الغريب زفرة، وصاح في أعماق نفسه: «ليتني أطعته في ذلك الحين!»

وكان قد وصل إلى قصر «البابا»، فطلب المثول بين يديه للفور، ولم يكن من الهيِّن الوقوف في طريق ذلك الشخص. لقد كان في عينيه شبه قوة لا تُصدُّ وأمر لا يُردُّ. لم يستطع أحد اعتراض سبيله، لا القساوسة ولا الكرادلة. فُتحت أمامه الأبواب، فدخل مُطرقًا خاشعًا إلى مقر رئيس الكنيسة.

وسدَّد البابا إليه البصر، ورآه في صورة رجل، فقال له بصوت مرتجف: أنت؟!

– نعم أنا.

– وماذا تُريد مني؟

– الدخول في حظيرة الإيمان.

– ماذا تقول أيُّها اللعين؟!

لفظها البابا هامسًا، وهو كالغارق في ذهول، ولكن الزائر الغريب بادر بصوت مُمتلئ بالصدق، ملتهب بالإخلاص يقول: ما عدتُ أستحق هذا الوصف. إني جئت إليك لأتوب، والويل لي إنْ كنت تهزأ بي، أو تشك في قولي. لكل شيء نهاية، وكان لا بُدَّ لي أن أبصر الحقَّ ذات يوم، وأن أعود إلى الصواب، كان من المحتوم أن أحنَّ إلى صدر الله يومًا، وأن أزهد في تلك الحرب الطويلة التي لا نفع فيها، وأن أهجر الإصرار والعناد، وأن أعاف مائدة الشر، وأن أتوق إلى طعم الخير. نعم، خذوا مني ما تريدون، عذبوني أشنع العذاب، أوقعوا بي أفظع العقاب، ولكن برب السموات لا تحرموني مذاق الخير لحظة! ما طعم هذا الشيء الذي تسمُّونه «الخير»، وتملكونه أنتم وتحبسونه عني؟! لقد عشت منذ الأزل؛ طالما كابرت، وطالما تكبَّرت؛ طالما صمدت، وطالما صبرت، طالما قلت إن ما في يدي هو كل شيء، وإني أكفي ذاتي بذاتي، لا حاجة بي إلى غير ما أملك لنفسي ولمن يتبعني في مملكتي، وما من أحد لم يتبعني برهة من الزمن، رعيتي في كل مكان، حتى هنا بين تلك الجدران، على الرغم من المسوح والصلبان، ولكنْ ما قيمة ذلك المُلك العظيم ما دمت أحسُّ الحرمان؟ أنقذوني بربكم! أذيقوني الخير مرةً ثُم ألقُوا بي في الجحيم! لقد ألقيت السلاح ونبذت الكفاح. ما أنا إلَّا مؤمن، ذلك كل مطمحي الآن؛ أنْ أصبح واحدًا من هؤلاء المؤمنين الخيِّرين، مِمَّن تعجُّ بهم الساعة البِيَع والكنائس، ساجدين للرب مرتِّلين الأناجيل، فرحين بعيد السيِّد المسيح، مُردِّدين أقواله مُشيدين بأفعاله. أيُّها البابا يا وكيل المسيح، جئت أركع عند قدميك لتعمدني بيديك، وتُدخلني في الدين، وستراني من خِيرة أبناء الكنيسة الأبرار المُخلصين.

اهتزَّ البابا في عرشه لهذه النبرات الحارَّة الصادقة، ولكنَّه لم يكُفَّ عن الهمس والدهش!

– أنت؟ أنت إبليس، تدخل الآن في الدين؟

– ولمَ لا؟ ألم يجئ في كلام المسيح: «أقول إنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب، أكثر من تسعة وتسعين بارًّا لا يحتاجون إلى توبة»؟

هل فرَّق المسيح بين شخص وشخص؟ أليس الجميع أمام المغفرة سواءً؟ لِمَ تغلقون في وجهي سُبل التوبة؟ إني أتوب. أدخلوني في الدين. استمعوا إلى ما انبثق في قلبي من إيمان!

وقع البابا في حيرة، واضطرب وارتعد للفكرة، وصاح كالمُخاطب نفسه: «لا، لا، لا أستطيع هذا.»

وكان الأرغن يعزف أنغام ذلك «الميس» للبابا مارسيلوس من وضع الموسيقي القديم «بالسترينا»، فرفعت فوق أجنحتها مخيِّلة البابا إلى آفاقٍ من الأفكار: إذا آمن إبليس، ففِيمَ إذَن بعد اليوم مجد الكنيسة؟ وما مصير الفاتيكان ومتاحفه وتحفه ومخلَّفاته الدينية الكبرى؟! كل شيء يفقد معناه وتذهب روعته، وتُولي مقاصده كنيسة «سكستين» التي تُزيِّنها تصاوير ميكايل أنجلو عن «غواية حواء»، «الأنبياء»، «الطوفان»، «يوم الحساب الأخير»، ولوحات القاعات والمقاصير من ريشة روفائيل عن «خلق الله النور»، و«الخروج من الفردوس» و«تعميد المسيح».

إن إبليس هو محور الكتاب المُقدَّس بعهده «القديم والجديد»، كيف يُمحى من الوجود دون أن تُمحى كل تلك الصور والأساطير والمعاني والمغازي التي تعمر قلوب المؤمنين وتُفجِّر خيالهم؟ ما معنى «يوم الحساب» إذا مُحي الشر من الأرض؟ وهل يُحاسب أتباع الشيطان الذين تبعوه قبل إيمانه، أم تُمحى سيئاتهم ما دامت توبة إبليس قد قُبِلَت؟ ثُم ما مصير العالم وقد خلا من الشر؟ هذه الحروب التي جعلت من أوروبا المسيحية سيدة البشر، وهذه المنافسات الروحية والمنازعات الذهنية والمادية التي أوقد احتكاكها شرارة الفكر وضوء العلوم! لا، إن الأمر خطير وليس من حق البابا أن يفصل فيه، إن تحطيم الشر وفصله من الدنيا سيُحدثان انفجارًا لن يدرك الذهن له مدًى!

رفع البابا رأسه، والتفت إلى إبليس بحرجٍ وضيق: ولماذا جئتني أنا دون غيري؟ لماذا اخترت المسيحية دون بقية الأديان؟

– هذا الاحتفال بعيد السيِّد المسيح ذكَّرني وألهمني.

– أصغِ إليَّ يا … لست أدري بماذا أناديك؟ أرأيت؟ حتى اسمك بعد توبتك سيُثير إشكالًا! كلا! إن الكنيسة ترفض طلبك. اذهب إذا شئت إلى دين آخر.

وولَّاه ظهره.

خرج الشيطان من الفاتيكان خائبًا ذليلًا، ولكنَّه لم يفقد الأمل. إن أبواب الله كثيرة، فيلجأ إلى باب آخر، ويمَّم شطر حاخام اليهود.

استقبله الرئيس الإسرائيلي كما استقبله الرئيس المسيحي، واستمع طويلًا إلى أمنيته، ثُم التفت إليه وقال: تريد أن تكون يهوديًّا؟

– أريد أن أصل إلى الله.

فتأمَّل الحاخام قوله مليًّا، إذا عفا الله عن إبليس ومحَى الشر من الأرض، ففِيمَ إذَن التمييز بين شعبٍ وشعب؟ بنو إسرائيل شعب الله المختار، لن يكون بعد اليوم مُبرِّر لاختيارهم دون بقيَّة الشعوب، ولامتيازهم على بقيَّة الأجناس، حتى السيطرة المالية التي صارت إليهم منذ أجيال ستذهب عنهم بذهاب الشر عن النفوس، وزوال الجشع وموت الطمع، وفناء الأثرة والحرص والأنانية. إيمان إبليس سيدكُّ صرح التفوُّق اليهودي، ويهدم مجد بني إسرائيل.

ورفع الحاخام رأسه، وقال بنبرة استهزاء: ليس من عادتنا التبشير، والاهتمام بأن يدخل في ديننا الغير حتى ولو كان إبليس! اذهب عنَّا إلى دينٍ آخر!

فخرج إبليس من عنده مخفقًا مرذولًا، ولكنَّه لم يقنط، لم يزل أمامه باب؛ هو دين الإسلام.

واتَّجه لوقته إلى شيخ الأزهر.

واستقبله شيخ الأزهر، وأصغى إلى قوله وما يسعى إليه، ثُم التفت إليه وقال له: إيمان الشيطان عمل طيب! ولكن ...

– ماذا؟ أليس من حق الناس أن يدخلوا في دين الله أفواجًا؟ أليس من آيات الله في كتابه الكريم: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾؟

ها أنا ذا أسبِّح بحمده وأستغفره، وأريد أن أدخل في دينه خالصًا مُخلصًا، وأن أُسْلِم ويحسن إسلامي، وأكون نعم القدوة للمهتدين!

وتأمَّل شيخ الأزهر العواقب، لو أسلم الشيطان، فكيف يُتلى القرآن؟ هل يمضي الناس في قولهم «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»؟ لو تقرَّر إلغاء ذلك لاستتبع الأمر إلغاء أكثر آيات القرآن؛ فإن لعن الشيطان والتحذير من عمله ورجسه ووسوسته لَمِمَّا يشغل من كتاب الله قدرًا عظيمًا. كيف يستطيع شيخ الأزهر أن يقبل إسلام الشيطان دون أن يمسَّ بذلك كيان الإسلام كله؟!

رفع شيخ الأزهر رأسه ونظر إلى إبليس قائلًا: إنك جئتني في أمر لا قِبل لي به. هذا شيء فوق سلطتي، وأعلى من قدرتي. ليس في يدي ما تطلب، ولست الجهة التي تتجه إليها في هذا الشأن.

– إلى مَن أتجه إذَن؟ ألستم رؤساء الدين؟ كيف أصل إلى الله إذَن؟ أليس يفعل ذلك كل مَن أراد الدنوَّ من الله؟!

– نعم، ولكنَّك لست مثل الآخرين.

– لماذا؟ إني لم أُرد أن أميِّز نفسي عن الآخرين، لم أُرد الارتفاع مباشرةً إلى السموات العُلى أُحادث الملائكة وأُقابل الأنبياء. كان ذلك في مقدوري، ولكنِّي أبَيت الاعتصام بقدرتي والاعتزاز بشخصيتي. لم أشأ طرق باب السماء بصولجانٍ كما يطرقها ملك، وإن كان ملك الشر. لم أشأ جلجلة السماء بضجيجي ولا زلزلة الأعالي بصياحي، وأنا أضع سيفي وأُسلِّم سلاحي، وأخضع كما يخضع تاج لتاج، ولكنِّي أردت أن أدخل باب الدين كمسكين، وأن أزحف على ركبتي مُعفِّرًا رأسي الملكي بتراب الذُّل، ملتمسًا الهداية والمغفرة من البِيَع والكنائس والمساجد كما يلتمسها أحقر البشر وأضعف الآدميين.

أطرق شيخ الأزهر لحظةً، وهرش لحيته، ثم قال: نية طيبة ولا ريب! لكنْ على الرغم من ذلك أصارحك أن اختصاصي هو إعلاء كلمة الإسلام، والمحافظة على مجد الأزهر، وأنه ليس من اختصاصي أن أضع يدي في يدك.

– لك الشكر.

قالها إبليس بذلة ومسكنة، وخرج واليأس ملء نفسه، ومشى في طرقات الأرض، على غير هُدًى، ينظر إلى براءة الأطفال، فيذوب قلبه حنانًا إلى كل شيء طاهر بريء، ويرى الخير في أعمال الطيبين من الناس، فيتحرَّق شوقًا إلى كل خير، ويُطالع ثمار الصلاح والتقوى والإيمان، معروضة في قلوب الأخيار المؤمنين، كأنها في واجهات الحوانيت، يمد إليها يدًا قاصرة عاجزة، ويشيعها بنظرة ملتاعة والهة. الحرمان من الخير، تلك هي النقمة الكبرى التي صُبَّت على الشيطان!

وصاح صيحةَ ألمٍ بدَّدت السحب، ونفذت إلى السماء، ولم يُطق صبرًا، فانتفض انتفاضةَ مَن كادت روحه تزهق، وتجرَّأ وصعد إلى الأعالي!

دقَّ بيديه أبواب السماء دقًّا، وطرق بروجها طرقًا، وقد طار صوابه، كأنه شحاذ صائم يقرع بابًا من أجل لقمة عند الغروب.

فظهر له الملاك جبريل: ماذا تريد؟

– التوبة.

– الآن؟!

– هل جئت متأخِّرًا؟

– بل جئت قبل الأوان! ليس لك الساعة أن تغيِّر النظام الموضوع، ولا أن تقلب ما استقر من أوضاع. عُدْ من حيث أتيت، وعشْ في الأرض كما عشت.

– أنت أيضًا؟ آه! ما عُدت أستطيع، أذيقوني الخير!

– الخير محظور عليك، إيَّاك أن تمدَّ إليه يدًا!

– شجرة مُحرَّمة؟

– عليك نعم، ولن تجد ما يُعينك على عصيان هذا الأمر كما عاونتك حواء من قبل، يوم أذاقت آدم من شجرة الشر!

– أليست هناك رحمة ومغفرة؟!

– ليس للرحمة ولا المغفرة أن تمسَّا نظام الخليقة.

– ما أنا إلَّا حقير في المخلوقات!

– نعم، ولكن زوالك من الأرض يزيل الأركان ويزلزل الجدران، ويضيع الملامح ويخلط القسمات، ويمحو الألوان ويهدم السمات؛ فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة، ولا للحق بغير الباطل، ولا للطيب بغير الخبيث، ولا للأبيض بغير الأسود، ولا للنور بغير الظلام؛ بل ولا للخير بغير الشر؛ بل إن الناس لا يرون نور الله إلَّا من خلال ظلامك. وجودك ضروري في الأرض ما بقيت الأرض مهبطًا لتلك الصفات العليا التي أسبغها الله على بني الإنسان!

– وجودي ضروري لوجود الخير ذاته؟! نفسي المعتمة يجب أن تظل هكذا لتعكس نور الله! سأرضى بنصيبي المقوت من أجل بقاء الخير، ومن أجل صفاء الله. ولكنْ هل تظل النقمة لاحقة بي، واللعنة لاصقة باسمي، على الرغم مِمَّا يسكن قلبي من حسن النية ونبيل الطويَّة؟

– نعم، يجب أن تظل ملعونًا إلى آخر الزمان، إذا ما زالت اللعنة عنك زال كل شيء.

– عفوك يا ربي! لماذا أحمل هذا الوقر العنيف؟! لماذا كُتب عليَّ هذا القدر المخيف؟ لماذا لا تجعل مني الآن ملاكًا بسيطًا من ملائكتك، يُباح له حبك وحب نورك، ويُثاب على هذا الحب بالعطف منك والحمد من الناس؟ ها أنا ذا أُحبك حُبًّا لا مثيل له ولا شبيه، حُبًّا يستوجب مني هذه التضحية التي لم تُدركها الملائكة ولم يعرفها البشر، حُبًّا يقتضيني الرضا بارتداء ثوب العصيان لك، والظهور في لبوس المُتمرِّد عليك، حُبًّا يستلزم مني احتمال لعنتك عليَّ ولعنة الناس، حُبًّا لا تسمح لي حتى بشرف ادِّعائه، ولا بفرح الانتساب إليه، حُبًّا يستلزم مني احتمال لعنتك عليَّ ولعنة الناس، حُبًّا إذا كتمه النُّسَّاك ملأ صدورهم نورًا، وأنا أكتمه، ولكن نوره يأبى من صدري اقترابًا.

وبكى إبليس.

وإذا دموعه تتساقط على الأرض لا قطرات من ماء السحب، بل قِطعًا من النيازك المعتمة وأحجار الشهب!

فبادر جبريل مُرتاعًا يُسكِّنه: حسبُك! إنها تتساقط على غير هُدًى فوق رءوس العباد!

فكفَّ إبليس في الحال عن البكاء، وقال بمرارة أليمة وكأنه يُخاطب نفسه: نعم، حتى عبراتي كوارث!

وكفكف من دمعه مُتجلِّدًا، ولطَّف جبريل من لهجته قائلًا: تحمَّل مصيرك، وقُم بواجبك، وامضِ في مهمتك، لا تتململ ولا تتوجع ولا تثُر.

– أثور؟ لو أني أردت الثورة حقًّا لثُرت وعصيت وخرجت على النظام، وشققت عصا الطاعة بمجرد صمتي لحظة، ووقوفي عن أداء مهمتي برهة، وامتناعي عن إيحاء الشر دقيقة، ولكانت الأرض الآن يا جبريل كما وصفت: مُهدَّمة الأركان مُزلزَلة الجدران، ولكنِّي أُحب، ولست أثور، وحُبِّي لله وحده سر هذا التماسك في بناء أرضه! وسر هذا التناسق في قوانينه ونظمه!

– اسمع نُصحي! عُد إلى عملك!

– سأعود مُتدثِّرًا بعباءة لعنتي دون أن أدري متى أخلعها!

إن المُمثلين على الأرض يرتدون أحيانًا أدوار الخيانة والغدر، وهم يعلمون أن لخلعها ساعةً موقوتةً يعودون بعدها شُرفاء أطهارًا، وقد رُدَّ إليهم الاعتبار. أمَّا أنا …

– اهبط الأرض وتحمَّل؛ مَن يحب فلْيتحمَّل!

– إني أفعل أكثر من الاحتمال. إنَّ مَن يَمُتْ في معركة من أجل الله يُكتَب عنده في الشهداء، وأنا أتحمَّل في سبيله أكثر من الموت. ليتها كانت معركة! ليته كان الموت! ليتني كنت من جنوده!

يجب أن أعيش لأُخالف مَن أحب! إني أمقت نفسي وألعنها في كل لحظة مرَّاتٍ، لا أستطيع أن أموت حتى أقتل نفسي أو أدفع بها إلى القتل في سبيل الله! ولكنِّي أُنزل بها من صنوف الكُره وضروب البغض ما هو أبشع من القتل، وليس لي مع ذلك أن أتطلَّع إلى رحمة، ولا أن أطمح إلى مغفرة، ولا أن أطمع في أن أسلك في عداد المجاهدين.

ولمح جبريل في عينيه تلك القطرات تترقرق، فعاجله قائلًا: لا تبكِ! لا تبكِ! لا تنسَ أن عبراتك كوارث، وضحكاتك كوارث، لا تُكثِر من الانفعال رحمةً بالناس. اذهب، واصبر، والزم الاعتدال.

أطرق إبليس مليًّا وفكَّر طويلًا، ثُم تحرَّك أخيرًا وهو يقول في شبه همس: صدقت!

وترك السماء مُذعِنًا، وهبط الأرض مُستسلمًا، ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره، وهو يخترق الفضاء، ردَّدت صداها النجوم والأجرام في عين الوقت، كأنها اجتمعت كلها معها لتلتقط تلك الصُّراخة الدامية: إني شهيد! إني شهيد!

مُوزِّع البريد

عرفته على شاطئ البحر، ذلك الشخص الغريب الذي يحمل محفظة كمَحافظ مُوزِّعي مصلحة البريد. كل شيء فيه ينمُّ عن الكسل والاسترخاء والغباء، حتى نظرته إلى الفضاء، كانت نظرة المخبول الشائعة الخائرة، وجلسته كانت جلسة المُتعب المرهق الضَّجِر من نفسه ومن الدنيا. لقد خُيِّل إليَّ أن قاموس هذا الشخص لا يحوي غير كلمة واحدة «أُف»!

دنوت منه، وقلت له برفق: إذا لم يخِب ظنِّي، فأنت مُوزِّع بريد في الإجازة.

– إجازة!

لفظها الرجل دون أن يلتفت إليَّ، وفي شبه ضحكة غيظٍ مكتوم، فقلت له: ولِمَ لا؟ أليس من حقِّك أن تنال إجازتك الأسبوعية؟

– إني لم أنل إجازةً يومًا واحدًا طول حياتي.

– يا لَظلم مصلحة البريد! أوَليس فيها نظام للإجازات؟!

– مصلحة بريد لا تعرف الإجازات يا سيدي!

– ماذا تقول؟

– تصوَّر يا سيدي الفاضل أني أقوم في كل يوم مع الفجر والطير، فآخذ محفظتي مملوءةً منتفخة برسائل عدد هذا الرمل، كل مَن على الأرض له فيها رسالة، وعليَّ أنا أن أطوف بكل مخلوق أُسلِّمه واحدة، بالعدل والقسطاس، إلى أن ينتهي اليوم، وبانتهائه يجب أن تفرغ المحفظة؛ لتُملأ في اليوم التالي من جديد برسائل جديدة تُوزَّع على الناس واحدةً واحدةً بالعدل والقسطاس، وهكذا دواليك، لا الأيام تنتهي، ولا الناس تفنى، ولا المحفظة تفرغ، لا شيء يفرغ غير صبري، ولكن ما حيلتي؟ لا بُدَّ لي من العمل، وإلَّا تراكمت عليَّ رسائل يومين، فأقع في حيص بيص!

– يا لَلعجب! أوَلا يُوجد في المصلحة موزعون غيرك؟

– لا يوجد غيري، أنا كل المصلحة.

– أهو إهمال أو سوء إدارة؟!

– لست أدري. لطالما تظلَّمت من كثرة العمل، فذهبت صيحاتي في الهواء، وانتهى بي الأمر إلى ما ترى من التواكل وقلة الاكتراث.

– وهل تتمكَّن من توزيع هذه الرسائل في يومك؟!

– إني أُوزِّعها حيثما اتُّفق، ولا يُطالب إنسان بأكثر مِمَّا يستطيع، ولم أرَ أحدًا حاسبني على خطأ ارتكبته، ولا بُدَّ أني ارتكبت بالضرورة كثيرًا من الأخطاء. المهم هو أني لا أرجع آخر الأمر برسالة واحدة في محفظتي.

قالها وهو يفتح محفظته كأنما تذكَّر وجودها، فأبصرت فيها حقًّا عدد الرمل من الرسائل، فقلت له مرتاعًا: متى تُوزِّع كل هذا ونحن الآن في الضحى؟!

– لا تخشَ عليَّ، سأفعل ما أفعله كل يوم.

ومدَّ يده إلى صياد بقربنا ظل من مطلع الصبح لا يصطاد شيئًا، فدسَّ في جيبه عشرًا من الرسائل؛ فإذا شبكته تخرج برزق من السمك أذهله من العجب، وأرقصه من الفرح، وكان على بُعد منَّا جماعة من الصيادين يحاولون عبثًا أن يُخرجوا من البحر سمكة.

فقلت لصاحبي المُوزِّع مُشيرًا إليهم: وهؤلاء؟

فنظر إلى ناحيتهم، وقال مُتبرِّمًا: هؤلاء بعيدون عني. إني كما قلت لك رجل متعب، وما من شيء يضطرني إلى أن أقصد كل واحد منهم لأُعطيه رسالة. لقد أعطيت رسائلهم إلى هذا الصياد القريب.

– أوَتفعل هكذا برسائل الناس دائمًا؟

– طبعًا! وهل أنا من الجنون بحيث أوجع مفاصلي وأقطع أنفاسي جريًا وراء كل حي من عباد الله؟! إني أعطي مَن صادفني رسائل مَن لا يُصادفني، وأنا مُستريح في أمان الله!

ومرَّت بقربه عندئذٍ عجوز حيزبون، كريهة الصوت، سيئة الخلق، تُخرج من ثوبها ورقة «يانصيب»، وتُنادي بائع صُحف لتكشف عن رقمها في الجريدة، وهي تأمره وتنهاه بلهجة دونها السباب وقاحةً، وخلفها غيد كالغزلان في أثواب «البلاج» يركضن على الرمال، ويُلوِّحن بأذرعهن الفضية، ويحملن في أيديهن البضَّة أوراقًا من هذا اليانصيب يُردن كذلك الكشف

عنها، فاقتربت العجوز من المُوزِّع العجيب، فأخرج من محفظته ألف رسالة دسَّها في جيبها، فما كادت تكشف عن ورقتها حتى وجدت رقمها هو الرابح للجائزة الكبرى البالغة من الجنيهات ألوفًا، فصاحت بصوتها القبيح صياحَ الظَّفر والفرح والانتصار!

هنا طار صوابي وصحتُ فيه: اتقِ الله يا شيخ! وكُن صاحب نظر، إن لم تكن صاحب عدل. هذه الشمطاء الشوهاء التي يكره أن يضحك لها قبر، تُقبِل عليها أنت وتمنحها هذه النعمة، وعلى خطوات منها هؤلاء المليحات ينضح منهن الصبا فرِحاتٍ بالحياة، والحياة بهنَّ فرِحة، لا تُبصرهنَّ عينك، ولا يضحك لهن وجهك!

فدفعني عنه بيده وقال: اسكت! من فضلك اسكت! لو كان عليَّ أن أميِّز بين الربيع والخريف، والقبيح والمليح، وأن أفرز الذي يستحق مِمَّن لا يستحق، لما كنت أنهي شغلًا في يومي!

– أليس لكل إنسان عندك رسالة بنصيبه المماثل لنصيب أخيه؟

فصرخ في وجهي: قلت لكم لا أستطيع أن أفعل المستحيل! ارحموني! أما من أحد يرحمني أو يعذرني في الأرض أو في السماء؟! إنهم في السماء يقولون لي: «جلبت علينا بإهمالك سخط الناس!» وأنتم في الأرض تصيحون بي: «هذا أخذ وذلك لم يأخذ!» وأنا وحدي المظلوم؛ بصري كلَّ، وعقلي اختلَّ من إرهاقي بالعمل أجيالًا بعد أجيال. احمدوا ربكم أيُّها الناس، إن عيني تُبصر أشباحكم، وإني أنثر عليكم كل ما في محفظتي يومًا بعد يوم، ذلك أقصى قدرتي! مَن دنا مني أو دنوت منه أخرجت له وأعطيته ما لمس أصابعي، ما وقع في قبضتي، ما التقطته من المحفظة، أو ما عرفته وفقًا للمصادفات وتبعًا للظروف، أمَّا أن أُوزِّع بالعدل والقسطاس على كل إنسان نصيبه المُماثل لنصيب أخيه؛ فهذا عمل يحتاج إلى جري لا تحتمله ساقاي، وجُهد تعجز عنه قواي. اتهموني بالكسل ما شئتم، أو بالظلم، أو بالإهمال، فلن أصنع أبدًا غير ما ترون، ومَن له شكوى فليُعلِنها ما شاء، فإن عدد الشكاوى التي تُقدَّم كل يوم في حقي تبلغ عدد هذا الرمل أيضًا.

وانصرف عني وعن الشاطئ ذلك «المُوزِّع العجيب»، وتركني سابحًا في أفكاري، غارقًا في تأمُّلاتي إلى أن نبَّهتني صيحات الفرح من الصياد المحظوظ، وضحكات الغبطة من الرابحة العجوز، فنهضت أركض خلفه كالمجنون: أيُّها الموزع! انتظر، نسيت أن أطلب إليك، أعطني رسائلك، اغرف لي من محفظتك!

لكنَّه كان قد اختفى، وقعدت أنا على الشاطئ يائسًا لا أجد غير رماله تغرف منها قبضتي، وغير بناني أعضه ندمًا وأقول: لعنة الله عليَّ! كان «الحظ» ها هنا إلى جانبي بمحفظته المملوءة؛ يُعطي منها بغير حساب! ولكنَّها الفلسفة، قاتلها الله، شغلتني عن مصلحتي، وشغلته عن إعطائي، فضاع الوقت معه في الكلام، ولم أظفر من لقائه بغير كلام! ولو لم يمتد فكري إليه لامتدَّت يده إليَّ، ولكنتُ اليوم روتشيلد، وروكفلر، وقارون!

أنا الموت!

في سيدي بشر صخرة يحيط بها زبد البحر وحبب الموج كما تحيط قلادة اللؤلؤ بعنق جنية سمراء. فوق قمة تلك الصخرة جلس شاب في يده كتاب لا يُطالعه، ولكنَّه يُطالع الأفق اللانهائي تارةً، وتارةً أعماق الماء ما من شكٍّ في أنه يُصغى إلى همساتٍ تُناجيه وتُناديه، أهي خارجة من بين أسطر كتابه، أم آتية من الشفق البعيد، أم صاعدة من الغور السحيق؟ إنه يسمعها من هنا ومن هناك. إن لغتها مفهومة له، وإن مراميها معلومة لديه، وجاءت اللحظة الحاسمة، فنهض قائمًا كأن شيئًا يجذبه، وألقى بنفسه في الماء.

لم يمضِ قليل حتى شعر السابِحون ورواد «البلاج» أن في البحر غريقًا. هاج الشاطئ بمَن عليه وماج، وعلا الصياح وارتفع الضجيج، وبادرت قوارب الإنقاذ، وهُرع المجازفون من حُذَّاق السباحة، وبدا للناس أن تلك التدابير على غير جدوى؛ فهم يرون على البُعد ذلك الجسد التعِس ينتفض ويتخبَّط في لحظاته الأخيرة، ولم تعد تظهر منه إلَّا الأذرع المضطربة مع الأمواج، ولن يصل المُنقِذون إلَّا وقد صار في القاع. وجعل الناس يتتبَّعون مصير ذلك المجهول بقلوب واجفة، وكثر البكاء عليه من كل رقيقة أو متظاهرة بالرقة، وتمتمت الأفواه بالترحُّم عليه، وقد أيقن الجميع بهلاكه، ولم يبقَ عند أحد شكٌّ في تلفه.

ولكن صيحة فرح لم تلبث أن دوَّت في ذلك الجو العابس، فالتفت الناس؛ فإذا فتاة في «مايوه» تركب قاربًا صغيرًا من المطاط زاهي اللون، قد ظهرت من خلف الصخرة تحمل أمامها، فوق مطيتها، جسم ذلك الشاب كأنها تحمل مقطف مشترياتها من السُّوق، وهي تُهلِّل مرحة في قلب البحر: «هو! هو! هالو! هالو!»

فأدرك الناس أن ذلك الجسم المحمول بين يديها لم يزل ينبض بالحياة.

وهتفت الجماهير على الشاطئ للفتاة، واتجهت إليها جماعة السبَّاحين والمُنقِذين يأخذون منها الغريق، ويُسلِّمونه لرجال الإسعاف. ومشت الفتاة مختالةً بين الحشد المُحيط

بها، المُتسائل عن حقيقة الحادث، وهي تُجيب قائلة إنها شاهدت كل شيء من البداية حتى النهاية؛ فقد كانت تُجدِّف فوق قاربها المطاط قرب الصخرة، وأبصرت الشاب وهو يهب مستويًا على قدميه فوق القمة، ويطرح من يده الكتاب ثُم يُلقي بنفسه في الماء، فأسرعت إليه مُجدِّفةً بكل قوتها حتى بلغته، وقد كادت تطويه الأمواج، فقبضت على ذراعه وجذبته إلى مطيتها الخشبية، وهو خائر القوى فاقد الوعي.

– إنه حادث انتحار إذَن! لماذا أراد أن ينتحر؟!

هذا هو السؤال الذي حار على كل الشفاه!

قد يكشف التحقيق عن السر، فالانتحار من الحوادث الجنائية التي يجب أن تتولَّى فيها التحقيق النيابة العمومية.

ولم تكن حالة المصاب الصحية على شيء من الخطر، فلم يكد يُسعَف بالعلاج حتى أفاق، وعاد بعد قليل إلى حياته الطبيعية، ومثل بين يدَي وكيل النائب العام، وكان في قاعة التحقيق تلك الفتاة شاهدة الإثبات تُدلي بأقوالها، فلمَّا فرغت، التفت المُحقِّق إلى الشاب قائلًا: ما هو الباعث لك على الانتحار؟

فلم يُجب الشاب، ولكنَّه التفت إلى الفتاة يتأمَّلها من رأسها إلى كعب حذائها، لا تأمُّل المعجب بحسنها، بل …

وكتم في صدره نفخةَ غيظٍ، ثُم قال: وما هو حقُّ الآنسة في منعي من الانتحار؟!

فتردَّد النائب قليلًا، ثُم أراد الكلام، ولكن الآنسة انطلقت تُجيب: لو رأيت منديلي يسقط مني في الطريق، أفلا تنحني وتتناوله وتردُّه إليَّ؟ إذا كان هذا من حقِّك، أفلا يحق لي، وقد رأيت حياتك تسقط منك في البحر، أن أنحني وأتناولها وأردَّها إليك؟!

فقال الشاب بقوة: لا يا سيدتي! موضوعنا عكس ذلك بالضبط. إن منديلك لم يسقط منكِ في الطريق، بل أنتِ بيدك وإرادتك أسقطته عن عمد، فلو رآكِ أحد وأنتِ تُلقين به في الطريق أو في البحر، ثُم تطفَّل وتدخَّل ليردَّه إليكِ، فهل تعتبرين هذا من حقِّه؟

فقالت الفتاة متحدية: ولكن المنديل …

وهنا تململ وكيل النيابة، فصاح: دعونا من مسألة المناديل هذه، هذا كلام لا يُدوَّن في محاضرنا. نحن أمام جناية شروع في انتحار، ولقد وجَّهت إليك أيُّها الشاب سؤالًا صريحًا: ما السبب الذي دفعك إلى ذلك؟ والمطلوب الإجابة عن هذا السؤال بدقة مع عدم الخروج عن الموضوع. تفضَّل!

فقال الشاب: اكتبوا ذلك السبب التقليدي الذي نُطالعه كثيرًا في الصحف: «لضيق ذات اليد.»

فقال النائب: أوَنسيت أنك قرَّرت في المحضر عند سؤالك عن صنعتك أنك من ذوي الأملاك، وأنك تعيش من ريع عقارات ورثتها عن أبويك؟!

– إذَن قولوا: إن السبب هو البله أو الخبل أو الضعف العقلي!

– أغاب عنك أنك قرَّرت في المحضر أنك حائز على ماجستير في الفلسفة من الجامعة؟! الفلسفة من الجامعة؟!

– قل لي يا حضرة النائب، ما شأنكم إذا كنت أريد أن أحيا أو أريد أن أموت؟

– عجبًا! ألا تعرف أن الانتحار جريمة؟

– أعرف أن الانتحار هو رغبة في الانتقال من دارٍ إلى دار، ألا تقرأ في أعمدة الوفيات بالصحف كل يوم: انتقل فلان من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل المُصيِّف إلى الإسكندرية من القاهرة؟ اعتبروني إذَن من المُصيِّفين؛ زهدت في مصايف الدنيا كلها، فخطر لي أن أنتقل من هذا العالم إلى عالم آخر.

– هكذا بدون جواز سفر، أو بدون تذكرة، أو بدون ترخيص؟

– حتى في هذا أيضًا لا بُدَّ من هذه الإجراءات؟

– طبعًا! وهل تظن الأمر فوضى حتى تنتقل من عالم إلى عالم من تلقاء نفسك خفيةً على هذا النحو؟ إن كل مسافر خفيةً يُعتبر مخالفًا، حتى المسافر إلى العالم الآخر!

– إذَن اعتبروني مخالفًا؛ لأني سافرت بدون ترخيص، أو بدون أمر، ولكن لا حقَّ لك في أن تسألني عن سبب السفر! فليكن لتغيير الجو، أو للتهرُّب من الدائنين، أو لمُلاقاة عزيز، أو للتخلص من ثقيل.

– اسمح لي بأن أذكِّرك بأن سبب السفر يُطلب دائمًا في أحوال الانتقال النهائي، والإقامة الدائمة بين بلد وبلد، فمن باب أولى إذا كان الانتقال والإقامة بين دنيا ودنيا …

– أُف! يا لَفضول الناس! ويا لَلحرية المفقودة على هذه الأرض!

وأطرق الشابُّ قليلًا، وجعل رأسه بين كفَّيه، وانتظر وكيل النيابة لحظة؛ رأفةً به وإشفاقًا من الإثقال عليه، إلى أن اعتدل الفتى والتفت إلى المُحقِّق بعينين تقولان: أمُصرٌّ أنت؟

فقال النائب: نعم لا بُدَّ من الإجابة عن سؤالنا.

فقال الشابُّ وهو يتهيَّأ للقيام: اكتب إذَن أن السبب هو مرضٌ نفسي، وهذا كل ما عندي.

ولم يرَ المُحقِّق بُدًّا من الاكتفاء بهذا الجواب، وتمَّم إجراءاته، وختم محضره، وأذِن للشابِّ والحاضرين في الانصراف. لم يكد الفتى يخرج إلى الطريق حتى كانت الفتاة في أثره تقول: أرجو أن يكون سخطك عليَّ قد زال.

فالتفت إليها على الفور قائلًا: لن يزول ما دُمت على قيد الحياة.

– إلى هذا الحدِّ تراني قد أسأت إليك؟

– لولا تدخُّلكِ الطائش لكنت الآن في عالَمٍ أرقى!

– تدخُّلي الطائش؟!

– وداعًا يا سيدتي! وداعًا!

وتركها وقفز من فوق الإفريز ليجتاز الشارع مُسرعًا، وإذا سيارة نقل ضخمة قد داهمته، وكادت عجلاتها تسحقه لولا جذبة من يد الفتاة جرَّته إلى الخلف أعادته سالمًا إلى الإفريز حيث كان، فرماها بنظرة ناريَّة فهمت معناها، وقالت بصوت يقطر حيرةً وأسفًا: لا تؤاخذْني؛ هذا غصب عني.

فهزَّ رأسه غيظًا، وقال كالمُخاطب لنفسه: لا فائدة، ما دُمتِ أنتِ موجودة، فلن أرى الموت بعيني!

فقالت شبه معتذرة: وكيف كان ينبغي أن أتصرَّف؟!

فانفجر حانقًا ثائرًا: كفى! كفى! مصيبة نزلت على رأسي وانتهى الأمر! من أين طلعتِ لي أيَّتها المخلوقة؟ تُفسدين تفكيري وتدبيري، وتعبثين بخُططي وتَحولين بيني وبين مصيري! أخبريني كيف أهرب منكِ؟ قولي لي كيف أهرب منكِ كي أُلاقي الموت!

فلم تستطع الفتاة أن تكتم ما خامرها من ضحك، غير أنها تماسكت وتصنَّعت الجِدَّ، وقالت: مصيبة نزلت عليك؟! ولماذا لا تعتبرني ملاكك الحارس؟

– أنتِ؟ لو كنتِ ملاكًا حارسًا لاستطعت على الأقل أن أُغافلك وأصنع ما أشتهي.

– ماذا تشتهي؟ أن تموت؟

– نعم.

فصوَّبت إليه نظرة فاحصة، ثُم قالت: ما كنت أعرف أن للموت هُواةً كهُواة التنس، والبنج بونج، والتجديف! يجب أن أعترف حقًّا أني أخطأت إذ منعتك من ممارسة هوايتك المفضلة! ولكن الأمر بسيط، في الإمكان إصلاح الخطأ في الحال.

– كيف؟

– ها أنت ذا موجود، والصخرة لم تزل قائمة، والبحر لم ينضب بعد.

– أُلقي نفسي في البحر من جديد؟

– وسأجلس أنا على القمة أطالع كتابك، وأشاهدك تهوي في الماء، فلا أرفع عيني عن الصفحة حتى أُتمَّها على مهل، وبعد ذلك ألتفت إليك وأترحَّم عليك. مبسوط؟ هيَّا بنا!

– نعم، هيَّا بنا!

قالها بصوت فيه القوة والعزم والتحدي، ومضى قاصدًا «سيدي بشر»، والفتاة إلى جانبه في مثل عزمه وتحمُّسه، وفطن إليها فجأة، فاستدار قائلًا: أنا ذاهب إلى الموت، وأنتِ ما شأنك؟

– أُسلِّمكَ إليه بيدي كما أنقذتك منه!

– هلُمِّي بنا!

وبلغا «بلاج» سيدي بشر، وأبصرا الصخرة.

فقالت الفتاة: عندي اقتراح، دعك من حكاية الصخرة، ولْيلبس كلٌّ منَّا «المايوه»، ونسبح فوق «البلسوار»، وبعد ذلك …

– ولكني لا أعرف العوم.

– وما الضرر ما دُمتَ تريد الغرق؟!

– صدقتِ، وبعد ذلك ماذا؟

– بعد ذلك تتزحلق وأنت من فوق «البلسوار»، وتسقط بين الأمواج في المكان الذي يروق لك. إنها موتة «سبور» طريفة! ما رأيك فيها؟

فهرش رأسه قليلًا، وتفكَّر لحظةً، ثُم قال: لا يا سيدتي، لا تمتهني جلال الموت، أنا الشابُّ الجادُّ طول عمري، أختتم حياتي بموت «سبور» بدل أن أختمها بموت وقور؟! يا لَلنساء! لا يضعن إصبعهنَّ في شيء حتى ينقلب لعبًا وعبثًا ولهوًا. اذهبي عني أيَّتها المرأة!

– لا تغضب! هلُمَّ إلى الصخرة.

لم تمضِ برهة حتى كان الفتى والفتاة فوق قمة تلك الصخرة المعروفة في «سيدي بشر» كأنهما عاشقان هربا بحُبِّهما من ضجيج المجتمع وصخب الأرض. وهل يستطيع الناظر إليهما عن بُعد أن يتوسَّم في أمرهما غير ذلك، مهما أوتي من فراسة؟ مَن ذا يُشاهد هذَين المنفردين الجميلين وهما يتطلَّعان إلى البحر بنظرات حالمة، ويخطر في باله تلك الصلة العجيبة التي تربط أحدهما بالآخر، أو يمر بخلده تلك الفكرة المروِّعة التي تجول برأس كلٍّ منهما الساعة؟!

وطال صمت قطعته الفتاة بقولها: من واجبي أن أنصحك أن تتروَّى.

– لا حاجة بي إلى نصائحك.

– أنت حُر.

– هس! دعيني أسمع تلك الهمسات التي تُناجيني وتُناديني، إنها آتية من الشفق البعيد، بل هي صاعدة من الغور السحيق، ألا تسمعينها؟

فسدَّدتْ إليه نظرة أرادت أن تنفذ بها إلى أعماق نفسه، وقالت: همسات تُناجيك وتُناديك؟ اسمع، أنا لست وكيل نيابة أمامه محضر، وأنت شخص على أبواب الوفاة، ولن أحول بينك وبين الموت كما اتفقنا، فهل تسمح وتفضي إليَّ بسر انتحارك؟ ثِق أني سأحتفظ به لنفسي، ولن أبوح به لأحد، قُل ما سبب الانتحار!

فلم يُجبها، ولم يلتفت إليها، وظلَّ يُحملق في ماء البحر؛ ولبثت هي تنتظر أن تنفرج شفتاه عن كلام، فلما أعياها سكوته طفقت تقول: السبب ظاهر، طبعًا من أجل امرأة!

فاتَّجه إليها بوجهه ورمقها بنظرةٍ سخرية، ثُم عاد إلى ما كان فيه من تأمُّل الماء دون أن ينبس بحرف، فأردفت تقول بإصرار: لا بُدَّ أن يكون هذا هو السبب، من أجل امرأة في حياتك، أو لعدم وجود امرأة!

فاستدار يقول لها بهدوء: لماذا تجعلين للمرأة هذه الأهمية في الكون؟!

– إذَن ما السر؟

– يهمك أن تعرفي؟

– جدًّا.

– اعرفي إذَن أنه لا يوجد سر، كل ما في الأمر أني أريد الخروج من الحياة، أريد أن أخرج منها بكل بساطة، ماذا في ذلك؟

– إنك لم تدخل الحياة بإرادتك حتى تخرج منها بإرادتك.

– كدت أخرج منها بإرادتي، لولا فضولكِ وانحشاركِ فيما لا يعنيكِ.

– الحقُّ معك، هذا درس ينفعني في المستقبل، وإنْ كنَّا أحيانًا لا نقوى على منع أنفسنا من تنبيه الغافل. هذه الحياة التي تمقتها، انظر إليها، أليست جميلة؟! أنت لا ترى في الأفق والبحر غير أذرع للفناء تدعوك وتناديك، ولكن الناس من حولك يرون بهجة في كل شيء. انظر إلى الأطفال والنساء والشيوخ والرجال في الماء وعلى الرمال؛ كلهم مرحون ضاحكون لكأنهم يُصغون إلى همسات أغنيات تتصاعد من كل شيء لتناديهم وتدعوهم إلى البقاء!

فتململ الشاب ونفخ، نافد الصبر ضيِّق الصدر، وقال: الحياة قبيحة في نظري، أشريكتي أنتِ في حدقة عيني وشبكة بصري؟! رواية في السينما لم تعجبني، وأردت

الخروج، هل لمتفرج في القاعة أن يُمسك بيدي ويجلسني على الرغم مني يقول: الرواية ممتعة، امكُث حتى النهاية؟!

فقالت الفتاة بعنف: لا أحد يمسك بيدك، تفضَّل مُت!

وابتعدت عنه وانتحت ناحية من الصخرة، ولبث هو لحظةً في مكانه بلا حرك، ثُم تزحزح قليلًا، واقترب منها وقال: ومن يضمن لي لو ألقيت بنفسي أنكِ لا تنقذينني؟!

فنظرت إليه بعينين واسعتين: مَن يضمن لك؟ هل يحتاج الأمر أيضًا إلى ضمانات وتأمينات؟ اسمح لي، هذا كثير، قلت لك اطمئن من جانبي ومُت كما تشاء، ولكن يظهر أن الشجاعة فارقتك، وأنك تلجأ الآن إلى التعلُّل والتحجُّج و«التمحُّك»، فصاح قائلًا: أنا؟! إنكِ لا تعرفينني، ستَرَين.

– لقد عرفتك.

– كم الساعة عندك؟ سأموت بعد …

– وما لزوم الساعة؟ قفزة وتصير في الأعماق!

– أنا حُر في اختيار الوقت.

– أرجو أن تُسرع من فضلك، ولا تُعطِّلني أكثر من ذلك.

وأخرجت مرآتها الصغيرة، وجعلت تُسوِّي شعرها بتمهُّل وتأنُّق وعندية، وتنظر إلى انعكاس صورته في المرآة وهو واقف كالصنم، لا يدري ما يفعل، ثُم طفقت تدندن بأغنية معروفة، فقال لها بنبرة حنق: تغنين؟

– أنا في انتظارك!

لفظتها بهدوء دون أن تلتفت إليه، فتركها في حركة عنيفة ويمَّم شطر البحر، وصاح: الوداع! قبل أن ألفظ النفس الأخير، أذكِّركِ بتعهُّدكِ، إيَّاكِ أن تحاولي!

فقاطعته قائلة بفتور: اطمئن!

فاتَّجه إلى البحر ومدَّ يديه، وصاح: واحد، اتنين، تلا…

ولم يُتم؛ فقد انطلقت من فم الفتاة ضحكة عالية، فأرخى ذراعيه، والتفت إليها ساخطًا، فابتدرته قائلة ووجهها في المرآة وإصبعها تمسح شفتيها: سامحني، دهنت فمي بإصبع «الروج» أكثر من اللازم، انظر!

– أهذا سلوك امرأة تُشاهد رجلًا يحتضر؟!

– أنا متأسِّفة. لا تغضب! سأُتِم زينتي فيما بعد، هلُمَّ امضِ فيما أنت فيه، أنا الآن تحت تصرُّفك. تفضَّل.

وأخفت مرآتها، واعتدلت في جلستها، ولكنَّه أطرق إطراق اليائس لا من الحياة؛ بل من الموت، ثُم جلس ووضع رأسه في كفَّيه، وبدا كأنه فريسة لتفكير ممضٍّ وحيرة مضنية، وأمسى منظره يستدر الإشفاق ويستثير الرثاء، فدنت منه الفتاة قائلة برفق: لا تُعذِّب نفسك، حاول أن تُعيد النظر في الرواية، أعني الحياة، فقد ترى فيها …

فلم يدعها تُكمل عباراتها، وانتفض قائلًا: لا، لن أرى فيها غير سخيف وقبيح. أنتِ لا ترَين ما أرى لأنكِ لا تُفكِّرين برأسك، وأغلب الناس مثلك، أتدرين ما الحياة؟ إنها مرآة لا كمرآتك تعكس لكِ وجهًا جميلًا، ولكنَّها مرآة من مرايا «اللونابارك» تعكس الحقيقة طويلة وقصيرة، ومنتفخة ونحيلة. لقد تأمَّلت فوجدت أنه لا توجد في الحياة حقيقة ثابتة، فما نُسمِّيه الخير والجمال والعدالة والحرية … إلخ، ليست سوى أشياء لا تحتفظ بصفاتها طويلًا دون أن تتحوَّل إلى جواهر جديدة عكسية مناقضة؛ فالحرية إذا امتدَّت في المسافة والبُعد صارت عبودية، والعدالة تمتد إلى نهايتها فتُصبح هي الظلم، والجمال في امتداده ينقلب إلى قُبْح، والخير إلى شر، حتى المواقع الجغرافية في هذه الدنيا ليست ثابتة؛ فإذا امتد الشرق إلى نهايته تحوَّل فجأة إلى غرب، وحسن القمر أو الكواكب الذي يتغنَّى به الشعراء ينقلب إلى هولٍ قبيح إذا تغيَّرت الأبعاد. لا تُوجد في الحياة حقائق ثابتة، كل شيء أبعاد ومسافات، أين الحقيقة فينا في هذا «اللونابارك»؟ إن مرآته تعكس لنا صورًا تختلف في الطول والقصر، والبدانة والنحافة، والحسن والقبح، كُلما غيَّرنا البُعد والمسافة بيننا وبين المرآة، وكانت الحقيقة خارج «اللونابارك» بعيدة عن تلك المرآة! فهل أنا مخطئ إذا سعيت إلى الخروج لأبحث عن حقيقة وجودي؟! ما قولكِ الآن؟ أما زلتِ مُصرة على مخالفتي في الرأي؟

فسكتت الفتاة لحظةً، ونظرت إليه تتأمَّله مليًّا، ثُم قالت: هل تشكو من إمساك مزمن؟

– نعم، كيف عرفت ذلك؟

قالها سريعًا، ولكنَّه لم يلبث أن فطن للمفارقة، فتجهَّم وهمَّ بعتابها وانتهارها، فليس هذا هو التعليق اللائق بتفكيره العميق، ولكنَّها أسرعت تقول بلطف: أتدري لماذا تُفكِّر في الانتحار؟! هذا طبيعي، أنتَ تصعد في القمم، ألا تُلاحظ أن أولئك الذين يصعدون الهرم الأكبر، يشعرون بدوار، ويحسون كأن الأرض تجذبهم وتُناديهم؟ ولولا أيدٍ تسندهم لسقطوا، أو ألقوا بأنفسهم وهم لا يشعرون، ولكن من المستحيل على مَن يمشي فوق الأرض أن يشعر بدوار المرتفعات الذي يغري بالوقوع! عندي لك علاج لدوار المرتفعات، أتدري ما هو؟ أن تتعاطى بعض التفاهات!

فلم يكد الشاب يسمع منها ذلك حتى ثار: التفاهات؟ أنا الذي اعتدت التفكير والتأمُّل طول العمر؟!

فقالت هادئةً: لماذا تجعل للتفكير هذه الأهمية في الكون؟!

– ماذا تقولين؟

– اسمع! اذهب وازدرد «كوزين» ذرة مشوية على «الكورنيش»، واملأ أمعاءك بنصف أقة خيار أخضر بقشره.

– يا حفيظ!

– وتزوَّج امرأة وتُناكفها وتُناكفك، وتملأ جزءًا من حياتك بالسخف والقرف والخلف.

– أتزوَّج؟!

– وإذا طلبت مني هذه التضحية لعلاجك، فإني أُقدِّم نفسي كأنها دواء من «الأجزاخانة» في زجاجة عليها ورقة …

– حمراء!

ونهض من فوره مستويًا على قدميه، ولم تشعر الفتاة إلَّا والشاب في البحر يتخبَّط بين الأمواج، وقد ألقى بنفسه بلا تردُّد قبل أن تفطن إليه، فارتبكت هي لحظةً لا تدري ماذا تصنع، إلى أن دفعتها غريزتها عن غير وعي فألقت بنفسها خلفه في الماء، وانتشلته وجذبته إلى الصخرة، وأسعفته، فثاب إلى رشده وفتح عينيه، ووجد نفسه بين ذراعيها، فقال مرتاعًا: أنتِ؟

فقالت باسمة: ألا تُريد أحضان الموت؟

– نعم.

– أنا الموت!

وكانت الدنيا!

لماذا تمرَّد إبليس؟ قصة ذلك معروفة، جاءت بها الكتب السماوية، ولا سبيل إلى الشكِّ فيما روت. ولكن خيال الروائي يجنح أحيانًا إلى اختلاق صور أخرى للحادث الواحد، ولا بأس من عرض إحدى هذه الصور على سبيل التفكُّه لا الاعتقاد.

جاء في تاريخ أبي الفدا أن إبليس قبل أن يرتكب المعصية ويُناهض ربه، كان اسمه «عزازيل»، وكان من أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة، وكان رئيس ملائكة السماء، وكان خازنًا على الجنان، وكان له سلطان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهادًا وأكثرهم علمًا، وأن الله لَّما فرغ من خلق ما أحَب استوى على العرش، فجعل إبليس على الملائكة، فوقع في صدره: «إنما أعطاني الله هذه المزية لي على الملائكة.»

وتبدأ قصتنا هذه المخترعة وبعد أن تمَّ خلق آدم، خلقه الله بيده؛ إذ لبث جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها يصنع منه آدم، فلمَّا مد جبريل يده إلى الأرض فزعت وقالت: «أعوذ بالله منك أن تنقص مني.» فرجع الملاك ولم يأخذ، فبعث الله ميكائيل فكان حظه مثل حظ جبريل، فبعث الله في آخر الأمر ملك الموت، فما كادت الأرض تقول له: «أعوذ بالله منك أن تأخذ مني.» حتى قال لها: «وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمر ربي.» ومدَّ يده وقبض مِن وجه الأرض قبضة، ولم يأخذ من مكان واحد، بل أخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء، ولذلك خرج بنو آدم مختلفين في اللون، وخلق الله من هذا الطين جسد آدم، فلمَّا مرت به الملائكة فزعوا منه، حتى إبليس كان يمر به فيضربه فيصوِّت الجسد الأجوف كما يصوِّت الفخار، وتُسْمع له صلصلة، ثُم نفخ الله فيه بعد ذلك من روحه، ولَّما دخلت الروح في رأسه عطس، ولَّما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلمَّا دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام. وأتمَّ الله خلق آدم! فجاء خير ما خلق وأعجب ما أبدع، فأمر الملائكة أن يسجدوا لهذه الآية الرائعة، فسجدوا كلهم إلَّا إبليس، نظر إلى تلك المعجزة مليًّا، ثُم لوى

عنقه وهزَّ كتفيه، ومضى في الجنة يسير مستخفًّا بما رأى، مستكبرًا أن يقع ساجدًا لمخلوق من طين، وقابلته الحية الذكية وقد علمت بالخبر، فاستوقفته صائحةً: يا عزازيل! ما لك؟ لماذا لم تفعل كما فعل الآخرون؟

– أنا أسجد لهذا الشيء؟!

– لا تدع الحسد يأكل قلبك، اعترف أنه عمل عظيم!

– ماذا فيه من عِظم؟ أهو ذلك الطين الذي خُلق منه؟

– ذلك الطين أفضل على كل حال من النار التي خُلقت منها.

– ماذا تقولين أيتها الحية الخبيثة؟

– إن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو.

– أوَلا تعلمين ماذا في النار؟

– ماذا فيها؟ الطيش والخفة والسرعة والإحراق؟

– ما أنتِ إلَّا النفاق صُوِّر وكُوِّر! أَلِأن الله هو الذي خلقه؟

خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه أسماء كل شيء، وهذا شرف ما بعده شرف.

– علَّمه أسماء كل شيء؟

– نعم لأنه أعطاه العقل الذي به يعلم ويفهم، وأعطاه النفس التي بها يعي ويُدرك، وأعطاه القلب الذي به يشعر ويحب، إنه ليس على غرار الملائكة، مخلوقًا يفنى في العرش كل الفناء، إنه متصلٌ منفصل، إنه مندمجٌ مستقل، إنه قدير على أن يفكِّر بنفسه، وأن يعيش حياته وأن يقرِّر في بعض الأحيان مصيره كأنه مصغر إله أو صورة صغيرة لإله.

– لقد نفخ فيه من روحه!

– أرأيت! هو ذاك يا عزازيل، آن الأوان أن تفهم ذلك.

– آن الأوان أن أفهم أن في إمكاني أنا أيضًا أن أصنع شيئًا أنفخ فيه من روحي!

قالها كالمُخاطب لنفسه، ومضى سريعًا حتى لا يطرق سمعَه صوتُ ضحكات الحية الساخرة.

انطلق إبليس في كل مكان يبحث عن الطين حتى وجده، فتناوله فرحًا، وجعل يُسوِّي منه مخلوقًا على مثال آدم، وتمَّت الصورة، وانتظر أن تنبض أو تنهض، فلم يجد إلَّا جمادًا لا حراك به، فترك ما صنع وانطلق يائسًا ساخطًا، يحمل المرارة والخيبة ويريد أن يكتم ما وقع، ولكن الحية الذكية علمت بالأمر، فبادرته قائلة: فهمت الآن أن الخلق ليس هيِّنًا؟!

– اخرسي!

– آدم ليس هو الطين، بل «الحياة» التي أودعت الطين. ذلك هو «روح الله»، هذا هو سره الذي لم يكشفه أحد، حتى ولا أنت الذي زعمت أنك استرقت واجتهدت واطلعت على أكثر علمه.

– سر الحياة!

– نعم، الذي يُودعه الطين أو التراب أو النار أو الماء، أو أي عنصر من العناصر، ذلك هو السر الأعظم!

– كيف الحصول عليه؟

– هذا ما لا سبيل إليه، تلك صفة الله التي لا تنفصل عنه ولا ينفصل عنها، إنها روحه التي لا تُعطى ولا تُفقد ولا تُسلب، وهو وحده الذي يستطيع أن ينفخ منها بإرادته في الكائنات.

– لا بُدَّ لي مع ذلك أن أخلق شيئًا.

– شيئًا حيًّا؟

– نعم.

– لن تستطيع أن تخلق شيئًا حيًّا من مادة ميِّتة.

– اخرسي أيتها الثرثارة!

وتركها وانصرف مُطرقًا مفكِّرًا، ومشى في الجنة على غير هدًى، وإذا المصادفة تقوده إلى شجرة وارفة الظلال دانية القطوف، وإذا هو يبصر تحتها آدم راقدًا غارقًا في نعاسه، فوقف على رأسه يتأمَّله، وخطرت له فكرة أنعشته بالأمل، حقًّا إنه لن يستطيع أن يصنع مخلوقًا حيًّا من مادة ميِّتة كالطين، ولكنَّه قد يستطيع أن يخلق كائنًا حيًّا من شيء حي؛ فلو استطاع أن يأخذ من جسم آدم الحي قطعة، لكان في الإمكان أن يصنع الباقي، ولكن ماذا يأخذ؟ الأنف؟ هذا عضو ظاهر، وإذا استيقظ آدم بغير أنفه، فلن يكون هو الأضحوكة، بل الأضحوكة إبليس الذي سيُضبط متلبسًا بالسرقة، وسوف تكون قهقهة الحية عندئذٍ عالية صاخبة.

كلا، فلْيبحث عن عضو غير الأنف، ماذا؟ القدم؟ وبماذا يمشي آدم؟ اليد؟ وبماذا يأكل؟ اللسان؟ وبماذا ينطق؟ كلا، يجب أن يكون العضو المسروق غير ظاهر وغير نافع. وتحسَّس إبليس برفق جسد آدم، فوجد الأضلاع، إنها ليست ظاهرة، وهي كثيرة لا تظهر فيها السرقة إذا استُلب أحدها، فليأخذ هذا الأقصر الأيسر من بين أضلاعه؛ ففيه تتوافر كل الشروط، فهو مستتر منزوٍ لا فائدة فيه، ولن يشعر بفقده، حتى ولا آدم نفسه.

واستلَّ إبليس الضلع الحيَّ بخفة ومهارة، وسوَّاه على صورة آدم، ولكنه تصرَّف قليلًا، ووضع شيئًا منه، وانتصب ذلك المخلوق الجديد يتمطَّى، وعندئذٍ ارتفع صوت من بين الأشجار يقول: مرحى مرحى!

فالتفت إبليس، فإذا هي الحية واقفة على رأسه، مطلعة على فعله، فبادرها بلهجة الظافر: ما رأيك الآن؟

فقالت في ابتسامة خبث، وهي تنظر إلى المخلوق الجديد: بديعة حوَّاء!

فنظر إبليس إلى الحيَّة مستفهمًا مستغربًا.

– «حوَّاء»؟! لماذا تُسمِّينها هكذا؟

فأجابت الحية بمكر ودهاء: لأنها صُنعت من شيء حي!

– أبصرت إذَن كل ما حدث؟

– وسأكتم سرَّكَ، لا تخشَ شيئًا.

– أُسائل نفسي دائمًا: لماذا لا نكون أصدقاء؟ إني أحمل لكِ أيَّتُها الحيَّة كل تقدير، وأحمل لذكائك كل إعجاب، أتريدين أن أخصَّك بسرٍّ آخر؟ لقد كنتُ أُفكِّر فيكِ وأنا أصنع هذا المخلوق الذي سمَّيته «حوَّاء»!

– كما كنتَ تُفكِّر في نفسك.

– أحقًّا ما تقولين؟ أترَين في هذا المخلوق شيئًا مني؟

– بلا شك! انظر إلى حركاته، وإلى رشاقته، بل إلى بريق عينه، إن فيه أثرًا من الطين، ولكن فيه أيضًا لفحة من النار، انظر … انظر في حوَّاء بعض ما فيك؛ الطيش والخفَّة والسرعة والإحراق.

وعندئذٍ دوَّى في أرجاء الجنة صوت ارتعدت له فرائص إبليس والحية، فهربا مذعورَين جزِعَين، واستيقظ آدم من سُباته، فألفى حوَّاء بقربه، فلم يفهم من أمرها شيئًا، ولبث لحظة يتأمَّلها دهشًا إلى أن أُلقي في روعه عِلمٌ خفيٌّ بما ينبغي أن يفعل، فليسكن إلى حواء إذا شاء، ولكن الحذر كل الحذر أن يقربها أو يلمس جسدها جسده.

وعلم إبليس بالأمر فأقبل على الحيَّة يسألها: لماذا حُرِّم على آدم لمس حواء؟

فأجابته على الفور: أوَنسيت أن بها شيئًا من النار؟

ففكَّر إبليس قليلًا، ثُم قال بارتياب: لا أظن هذا كل شيء، إنما المقصود فيما أرى هو أمر أخطر من هذا، تُرى ماذا يحدث لو امتزج هذان المخلوقان؟

ففكَّرت الحية لحظةً، ووقع بصرها مصادفة واتفاقًا على عش طائر في أعلى الشجرة، فصاحت: يحدث لهما ما يحدث لهذا الطير يتناسلان.

– يتناسلان؟

ويخرج منهما مخلوق ثالث.

فصاح إبليس: نعم، هنا المسألة، وهنا عِلَّة الخطر، ولكن لماذا لا يُراد خروج هذا المخلوق الثالث؟

– لأنه سيكون فيه شيء منك، هذا مفهوم بالبداهة، إن آدم؛ ذلك العمل العظيم الذي يفخر به الخالق، تلك الآية التي نفخ فيها من روحه يجب أن تبقى هكذا بمفردها صورةً خالدة ناطقة بمقدرة المُبدع الأعظم وكماله الأبديِّ، الذي لا يشوبه نقص، ولكن جئت يا صديقي إبليس تُفسِد هذه الروعة، وتُريد أن تستخرج من هذه الصورة المفردة نُسخًا مُشوَّهة!

– هذا لم يخطر لي حتى الآن حقًّا! ولكنَّه لو حدث لكان بالنسبة إليَّ عملًا رائعًا! وهل هناك حقًّا أمهر من أن أملأ الدنيا نُسخًا من ذلك العمل العظيم الذي يفخر به الخالق؟!

– لا تسترسل في أحلامك وأوهامك، هذا لن يحدث أبدًا.

– لماذا؟

– لأن لآدم ملَكةً عجيبةً تُسمَّى «العقل»، دائمة التيقُّظ تمنعه من الزلل والوقوع في المحظور.

– العقل؟! أوَما من سبيل أن يدهم النومُ هذا العقلَ لحظة؟!

– إذا نام ذلك العقل، فقد تمَّ لك ما أردت.

– ساعديني يا صديقتي الحيَّة الذكية!

– لماذا تريد أن تُعرِّضني لغضب خالقنا الأزلي؟!

– إنه لن يغضب، لماذا خلق لكِ الذكاء إذَن؟ لقد أعطاك الذكاء كي تستعمليه، هلُمِّي يا صديقتي ساعديني.

– قولك مقنع حقًّا، ليس أشَق على النفس من أن نُعطَى شيئًا لا نستعمله، أمعقول أن تكون لي هبة لا فائدة منها؟!

– بل ليست تلك، ولا ريب، إرادة الخالق الذي أعطاكِ الذكاء يا صديقتي، إنه أحكم من أن يعطي شيئًا لغير شيء.

– صدقت، اسمع إذَن، هنا شجرة فيها فاكهة إذا نضجت واختمر عصيرها أحدث عجبًا؛ فقد رأيت بعض الطير ينقرها فتحدث له أحوال غريبة، ويقع في نشوة تُفقده اتزانه.

– دُلِّيني على هذه الشجرة.

وعند ذاك دوَّى في الجنة ذلك الصوت العظيم، فهرب إبليس والحيَّة مذعورَين، ووقع آدم وحوَّاء على وجهَيهما ساجدَين ثُم أُلقيَ في روعهما ألَّا يقربا هذه الشجرة، ولم يقنط إبليس؛ فقد عاد بعد قليل إلى الحية يقول: ما العمل؟

– دعني، دعني، لن أُشاركك بعد الآن في مشروعاتك.

– وماذا ستصنعين إذَن؟

– لا شيء.

– وهل يطيق ذهنك المتَّقد أن يخمد أو يكسل؟

– إني أخشى الخطيئة.

– الخطيئة لمثلي ومثلك ألا نطيع ملَكاتنا ومواهبنا.

– لا تُقنعني بهذا الكلام البارع.

– أنتِ كائن حيٌّ، أليس كذلك؟ وأنا كائن حيٌّ، هل نشكُّ في ذلك؟ الحياة التي فينا هي وحدها التي تُسيِّرنا كما تريد هي، نحن لا نخضع إلَّا لطبيعة الحياة التي رُكِّبت فينا، لم يوضَع في كياننا «عقل» كما وُضع في آدم؛ ذلك العقل أو العقل والقيد أو الحبال التي تُكبِّل حياته وتحدُّ من نشاطه، وتُسيِّره طبقًا للأوامر والنواهي التي تصدُر إليه من هنا ومن هناك! افعلي ما تُمليه طبيعتك يا صديقتي، فأنت حُرَّة من كل عقل.

– مثلك؟

– مثلي.

– لقد حُلَّت معضلتك إذَن، إن في حوَّاء، ولا ريب، شيئًا منك لن نجد فيها إذَن الكثير من ذلك العقل الذي نخشاه.

– يا لذكائكِ النادر أيَّتُها الحيَّة العزيزة! نعم، نعم لا شكَّ أن حواء فيها من روحي، إنها ستخضع إذَن للحياة والطبيعة والغريزة أكثر من خضوعها للعقل، لقد انتهى الأمر إذَن، إنها ستفهمني وستصغي، إليَّ وستأكل من الفاكهة.

– وفيها من قوة إقناعك، وبراعة إغرائك، فهي ستظفر بإقناع آدم وإغرائه أن يأكل كما أكلَت ويصنع كما تريد هي أن يصنع.

– فتهلَّل وجه إبليس فرحًا، وصفَّق طربًا، وجرى من فوره يبحث عن حوَّاء.

وتمَّ بعد ذلك ما هو معلوم، فقد ضعف آدم وأطاع حوَّاء وأكل معها من الشجرة، وانتشى من عصيرها وثمل، وامتزج بحوَّاء، وطُرِدا من الجنة إلى الأرض، وأنبتها الجنين الأول، وتكاثرت الذرية وتعدَّدت «النُّسخ»، وجاء قابيل فقتل هابيل، وكانت الجريمة الأولى،

وعُرف الشرُّ على الأرض، واختلطت الصور الجيِّدة بالرديئة، كما اختلطت الفضيلة بالرذيلة، وامتزجت النُّسخ الأصيلة بالدخيلة، ولم يعد في الإمكان فرز وريث آدم من وريث حوَّاء، ولا الكمال من النقصان، ولا النور من النار، ولا لمعة الحقِّ من خدعة الشيطان. امتزجت في الآدميِّ الواحد كل عناصر الخير والشر، والحسن والقبح، والحقارة والسموِّ، والتفاهة والعِظم، والعدل والظُّلم، والعقل والطيش، والضعف والبطش.

وكانت الدنيا!

دولة العصافير!

دولة عجيبة تبسط أجنحتها الصغيرة على الدنيا، وتنشر أفرادها في كل البقاع، لا تخفى من أرض، ولا تخلو منها سماء، كلها في عين الوقت إذا رأت عين الشمس زقزقت، أو إذا خرج الصبح من جوف الليل خرجت هي من الأعشاش، مَن هو المُنادي الخفيُّ الذي يوقظها جميعًا في لحظة واحدة، فتهب إلى العمل وهي تغنِّي، فلا كسلان مُتخلِّف، ولا متثائب مُترف؟!

قال عصفور صغير لأبيه ذات يوم: ألسنا نحن يا أبتِ خير المخلوقات؟

فهزَّ العصفور الكبير رأسه، وقال: هذا شرف لا ينبغي لنا أن ندَّعيه، هنالك مَن يزعم لنفسه هذا الحق.

– مَن هو يا أبتِ؟

– الإنسان.

– الإنسان؟ ذلك الذي يرشق أعشاشنا بالحجارة؟ أهو خيرٌ منَّا؟ أهو أسعد منَّا؟

– ربما كان خيرًا منَّا، ولكنَّه ليس أسعد منَّا.

– لماذا يا أبتِ؟

– لأن في جوفه شوكةً تخزه دائمًا وتُعذِّبه.

– يا له من مسكين! ومَن الذي وضع فيه هذه الشوكة؟

– هو نفسه بيده، هذه الشَّوكة تُسمَّى الجشع.

– الجشع؟ ما هو الجشع؟

– هذا شيء لا تعرفه أنت أيُّها الصغير، بل قد لا يعرفه أحد في دولة العصافير، ولكنِّي أنا عرفته لطول ملاحظتي للإنسان، ولوقوعي في قبضته أكثر من مرَّة، إنه الشيء الذي يجعله لا يشبع ولا يطمئن ولا يرتاح، نحن نعرف الشِّبع، وهو لا يعرف إلَّا الجوع، نحن

نعمل لنُرزق، وهو يريد أن يُرزق ولا يعمل، نحن لا نعرف استغلال عصفورٍ لعصفور؛ فعصافير الأرض تخرج كلها للعيش فرِحةً مُغرِّدةً متواضعةً مُتآخية، وهو لا يحلم إلَّا باستغلال أخيه الإنسان ليعمل بدلًا منه منذ الصباح الباكر، ويتمدَّد هو في فراشه يتمطَّى ويتراخى ويتثاءب حتى الضحى، فلا يرى الشمس الذهبيَّة، ولا الفجر الفضيَّ، ولا يستنشق الهواء النديَّ، إنما شمسه ذهبٌ مرصود في المصارف، وفجره فضَّةٌ تزيِّن أدوات حجرته، وهواؤه طمع يملأ صدره.

وسكت العصفور المجرِّب لحظة، ونظر إلى ابنه الناشئ فوجده يُصغي إلى هذا الكلام إصغاءَه إلى أسطورة خياليَّة، إنه يدرك ولا يصدِّق، ويعي ولا يعتقد، تلك أشياء لم يرَها بعينه، ولم يصادفها بعدُ في حداثته الصغيرة، ولم يُمارسها حتى الآن في حياته القصيرة.

ورأى أبوه منه ذلك، فقال: نعم، لا بُدَّ أن تُشاهد بعينيك، إذا رأيت يا بُنيَّ إنسانًا مُقبلًا، فأخبرني وأنا أُريك منه ما يُقنعك.

ولم يمضِ قليل حتى أقبل رجل، فما كاد العصفور الصغير يراه حتى صاح بأبيه يُنبِّهه، فقال الأب لابنه: سأوقع نفسي في يده، وعليك يا بُنيَّ أن تُراقب ما سيحدث.

– تقع في يده يا أبي؟ وإذا حدث لك ضرر؟

– لا تخفْ، إني أعرف طبائع الإنسان، وأعرف كيف أسخر منه وأُفلت من يده.

وغادر العصفور المُحنَّك صغيره، وهبط من فوره حتى وقع على مقربة من الرجل، فصاده الرجل فرِحًا، وضمَّ عليه أصابعه حرصًا منه على الغنيمة، فقال له العصفور وهو في قبضته: ماذا تُريد أن تصنع بي؟

فقال الرجل منهومًا: أذبحك وآكلك.

فقال العصفور الماكر: إني لا أُشبِعك من جوع، ولكنَّني أستطيع أن أُعطيك ما هو أنفع من أكلي.

– ماذا تعطيني؟

– ثلاث حِكم، إذا تعلَّمتها نِلت بها خيرًا كثيرًا.

– اذكرها لي.

– لي شروط؛ الحكمة الأولى أعلِّمك إيَّاها وأنا في يدك، والحكمة الثانية أعلِّمك إيَّاها إذا أطلقتني، والحكمة الثالثة أعلِّمك إيَّاها إذا صرت على الشجرة.

– قبِلت، هاتِ الأولى.

– لا تتحسَّر على ما فاتك.

– والثانية؟

– أطلقني أولًا حسب الشَّرط.

فأطلق الرجل من يده العصفور، ووقف العصفور على ربوة بقربه وقال: الحكمة الثانية: لا تصدِّق ما لا يمكن أن يكون.

ثُم طار إلى الشجرة وهو يصيح: أيُّها الإنسان المُغفَّل، لو كنت ذبحتني لأخرجت من حوصلتي دُرَّتين زِنة كل دُرَّة عشرون مِثقالًا.

فعضَّ الرجل على شفتَيه عضَّةً أدمَتهما، وتحسَّر حسرةً شديدة، ونظر إلى العصفور وقد صار على الشجرة، وتذكَّر شروطه، فقال له بصوت ينزف منه العذاب والتلهُّف: هات الحكمة الثالثة.

– فقال العصفور باسمًا ساخرًا: أيُّها الإنسان الطمَّاع! لقد أعماك جشعك فنسيت الاثنتين، فكيف أخبرك بالثالثة؟ ألم أقُل لك لا تتحسَّر على ما فاتك، ولا تُصدِّق ما لا يُمكن أن يكون؟ إن لحمي وعظمي ودهني وريشي لا يزن عشرين مثقالًا، فكيف تكون في حوصلتي دُرَّتان وزن كل واحدة عشرون مِثقالًا؟!

وكان منظر الرجل مُضحِكًا، لقد استطاع عصفور أن يلعب بإنسان، والتفت الأب إلى ابنه العصفور الصغير قائلًا: والآن رأيت بعينيك؟!

فقال الصغير وهو يراقب حركات الرجل ويُلاحظ ما به: نعم، لست أدري هل أضحك منه، أو أبكي عليه!

في سنة «مليون»

وضعت هذه القصة في سنة مليون «ميلادية»! في ذلك العصر صارت الدنيا إلى وضع يتعذَّر على الخيال تصوُّره، فلقد اختفت الحروب، وانقرض المرض، ومُحي الموت. نعم، لقد تغلَّب العِلم على الموت منذ مئات الآلاف من السنين، لم يعد هناك قوم يموتون، لم يعد هناك قوم يُولدون أيضًا؛ فالزواج للنَّسل انقرض كذلك منذ هذه الأحقاب، فالعِلم هو الذي يُجهِّز بكتيريا النَّسل الآدميِّ في مَعامله، ولقد ظلَّ الأمر يجري على هذا النَّهج ألوفًا من الأعوام إلى أن كفَّ الناس عن الرغبة في إنتاج بشر جديد، فما من ضرورة تقضي بزيادة الناس ما داموا لا يموتون! لقد أصبح البشر الموجودون شأنهم شأن عناصر الطبيعة الخالدة التي لا تتغيَّر، إنهم باقون دائمًا كتلك الشمس الباقية، وذلك القمر وذلك البحر وذلك الجبل، لا شيء يخبو فيهم أو ينقص منهم، فخلاياهم تتجدَّد وغُددهم لا تعرف البلى، كلمة الشيخوخة لم يعد لها مدلول في لغة ذلك العصر، ولا كلمة الشباب، كل ما يعرفه أهل ذلك الزمان هو أنهم «موجودون»، وهل يستطيع البحر، لو كانت له لغة، أن يتحدَّث عن الصِّبا أو الهَرَم؟!

في صيف ذلك العام — المليون بعد الميلاد — دخل عالِم من عُلماء طبقات الأرض على عالِم من عُلماء الكيمياء، وقال له: «يُخيَّل إليَّ أني سائر نحو اكتشاف خطير، سوف يُدهش الناس جميعًا، لقد عثرت على عمق بعيد في جوف الأرض على هذا الأثر، انظر.» وأخرج بحرص وحذر من حقيبته الصغيرة جمجمة آدميَّة! قدَّمها إلى صديقه الكيميائي، فتناولها وفحصها قائلًا: ما هذا؟ هيئة رأس يقرب من رءوسنا! لولا حجمه الصغير، ولولا هذا الشيء.

وأشار إلى الأسنان والفم.

فقال العالم الجيولوجي مُصادقًا: نعم، إن تاريخه يرجع إلى ستِّمائة ألف سنة!

– عجبًا! وكيف تجرَّد هكذا من لحمه ودمه وشراييه؟!

– هنا وجه الغرابة!

– وأين بقية الجسم؟!

– لم أعثر إلَّا على هذا الجزء.

ووقف الرجلان مشدوهَين أمام الجمجمة، فهذا شيء جديد لا يوجد له نظير في متاحفهم، فإن الحروب الذَّريَّة قامت في الأرض منذ مئات الآلاف من السنين، فقوَّضت متاحف العهود القديمة ومكتباتها، فلم يصل إلى زمانهم إلَّا خُلاصة التجارب العِلمية التي على أُسسها قامت دنياهم الجديدة.

وظهرت على وجه العالِم الكيميائيِّ عين الحيرة التي ظهرت على وجه قابيل يوم رأى الموت لأول مرة ينخُل في هابيل المقتول.

وهزَّ عالم الجيولوجيا رأسه، ولمس الجمجمة بإصبعه، وقال: لا شكَّ أن هذا إنسان مثلنا، ولكن كيف وصل إلى هذه الحال؟ هنا السِّر.

– نعم، لا بُدَّ أن تكون هنالك قوة تستطيع أن تحوِّل الحركة في الإنسان إلى هذا النوع من الجمود!

قالها العالم الكيميائي وهو يفحص العظام بيده.

– الحركة؟ الجمود؟! يبدو لي أنه لا بُدَّ أن تكون للحركة نهاية!

– كيف؟

– ألم تُسائل نفسك مرَّةً: «وأخيرًا، ماذا بعد ذلك؟» لقد سألت نفسي عن ذلك يومًا، ربما كان عِلم طبقات الأرض الذي أمارسه يدفعني إلى البحث في الماضي، وهذا البحث في الماضي يحملني على التنقيب في المستقبل. ما مستقبلنا؟

– مستقبلنا؟!

– نعم، مستقبل جنسنا الإنساني؟!

– ماذا في رأسك؟ شيء في رأسك قد اختل!

لفظها عالم الكيمياء وهو يُحدِّق في زميله مرتابًا، فكلمة «المستقبل» عجيبة الوقع على آذان القوم في ذلك العصر، ليس هنالك غدٌ بالنسبة إليهم، وليس هنالك ليل ولا نهار ولا نوم، فالضوء الصناعيُّ أغناهم عن الشمس، والأغذية الكيميائية أغنتهم عن النوم، إنهم حركة دائمة كحركة القلب لا تعرف الهمود ولا الجمود، لا وعي لهم لِمَا يُسمَّى «الغد»، أمَّا وعيهم للأمس فلا يتجاوز عشرات الألوف من الأعوام، لم يتغيَّر خلالها الوضع عمَّا هُم عليه كثيرًا، فهم إذَن لا يعرفون ولا تستطيع مداركهم أن تعي غير زمن واحد، هو «الحاضر» الذي يبسط جناحَيه الهائلَين على أحقاب تبدو كلها لكيانهم الخالد كأنها يوم واحد.

وشَخَص عالِم طبقات الأرض ببصره إلى الفضاء وكأنه يُحاول أن يرى في الضباب، وهمس كالمخاطب نفسه: ما دام هناك وجود، فلا بُدَّ أن يكون هناك عدمُ وجود.

– عدم؟!

– نعم، العدم.

فانتصب عالِم الكيمياء واقفًا، وقال: العدم؟ ما هو العدم؟ لأول مرَّة أسمع هذه الكلمات العجيبة، ماذا جرى لك أيُّها الزميل؟!

– ألا ينتابك أحيانًا هذا الشعور؟

– أيُّ شعور؟!

– الرغبة في ألَّا تُوجد.

– من العسير على ذهني فَهْم ما تعني، أو فَهْم ما بك، شيءٌ فيك قد اختل ... شيءٌ فيك قد اختل!

وأسرع العالِم الكيميائيُّ يترك المكان كالهارب، وذهب من فوره إلى دار هيئة العلماء، فعرض عليهم أمر عالِم الآثار وما نطق به من ألفاظ غريبة المعنى مُبهمة المرمى، فتلقَّوا الخبر بدهشة، وطلبوا حضوره، فلما مَثَل بينهم سألوه بيانًا عن تصريحاته، فقال: نعم إن وجودنا الدائم هذا لا بُدَّ أن يكون بعده شيء!

– أيُّ شيء تقصده؟

– الموت.

– الموت؟! ما هذه الكلمة؟

– لستُ أدري، لقد تعبتُ من نفسي الآن، إنه إلهام، إني مؤمن أنه يوجد شيء؛ فلْنسمِّه «الموت». لا بُدَّ أن نصل إليه يومًا، اصدقوني القول أيُّها العلماء، ألم يشعر أحدكم مرَّةً بإغفاءة طارئة عابرة كخفقة الجفن أحسَّ خلالها لذَّة وراحة من نوع غريب؟! هذه اللمحة يمكن أن تطول ويمكن أن تمتدَّ عبر الزمن حتى تُصبح «عدم وجود»، وتنقلب إلى ذلك الشيء الذي أُسمِّيه «الموت».

فهزَّ العلماء رءوسهم أسفًا، وأطرقوا خجلًا، وقد أدركوا أن زميلهم قد شطَّ به الخيال، ورأى أحدُهم أن يُطالبه بالدليل، فقال: لا تنسَ أنك عالِم لا يجوز له أن يجري وراء وهْم أو يستجيب إلى مُجرَّد شعور، قدِّم لنا برهانًا علميًّا على أن هذا الذي تُسمِّيه «الموت» ممكن أن يوجد!

فأخرج عالِم طبقات الأرض «الجمجمة» من حقيبته، وعرضها على العلماء صائحًا: أيُّها الزملاء الأجلَّاء، إن «الموت» قد وُجد يومًا على هذه الأرض، وهاكُم الدليل!

فتجمَّع العلماء على الجمجمة يفحصونها دَهِشِين أوَّل الأمر، ثُم لم يلبثوا أن تبادلوا نظرات السخرية والشكِّ والارتياب، ونبذها واحد منهم وهو يقول: هذا ليس دليلًا على ما تزعم، ولكنَّه دليل على أنه قد وُجد على هذه الأرض من قديم قوم وصلوا في العلم إلى ما لم نصل إليه اليوم، فنحن يوم كنَّا نصنع بشرًا في المعامل منذ مئات القرون، كُنَّا نُربِّي «النُّطفة» كما نُربِّي البكتيريا، ولكن أقوام ما قبل التاريخ، كانوا فيما يظهر، يصنعون الهيكل الآدميَّ صُنعًا، ثُم ينفخون فيه بعد ذلك، هذه العظام التي تعرضها علينا كانت «مشروع» خلق آدميٍّ لم يتمَّ صُنعه لسبب من الأسباب!

وافقت هيئة العلماء على هذه النظرية بالإجماع، وحذَّروا عالم الجيولوجيا من الاسترسال في أمثال هذه التُّرَّهات؛ خوفًا على بُسطاء العقول في المجتمع مِمَّن يستهويهم جوُّ الخرافات، وانصرف العلماء عن زميلهم الجيولوجي، وتركوه غارقًا في خِزيه وخَيبته.

ولكن اليأس لم يتطرَّق إلى قلبه، لقد كان شعوره الداخليُّ يوحي إليه أنه صادق النظر، ومضى إلى صديق له يأنس إليه ويُعوِّل عليه، من ذلك النوع الألطف الأرقِّ من البشر، الذي كان يُطلَق عليه «الأنثى» منذ خَمسِمائة ألف سنة، يوم كان وجود هذا النوع ضروريًّا لإيجاد هذا النَّسل، أمَّا بعد هذا التاريخ، فقد زالت هذه الضرورة، وبزوالها ضعف الاتصال بين النوعين لهذه الغاية، حتى بلغ الأمر حدًّا اختفت معه الفوارق الجنسيَّة بينهما، بانتهاء الوظائف العضوية، فإذا هما على مرِّ الزمن قد صارا شِبه نوعٍ واحد، لم يحتفظ أحدهما من خِصال ماضيه بغير شيء من الرقَّة في الطبع واللُّطف في التركيب، ولم يعد المجتمع يُميِّز بينهما أو يذكر ماضيهما. إنما هو صنف واحد من الإنسان، يُطلَق عليه اسم قاطن الكوكب الأرضيِّ؛ لأن الأرض كلها هي الأخرى أمَّة واحدة ومجتمع واحد يعيش في كنف «لجنة من العقول المُدرَّبة» هي حكومة الكوكب التي تُشرِف على إدارة شئونه العامَّة، وتنظيم أسباب الرَّاحة لسُكَّانه. ذهب العالم الجيولوجي إلى صديقه اللطيف، وقال له: هل تثق بي؟

– نعم.

– هل تؤمن بي؟

– نعم.

– إذَن فاسمع.

وروى له القصة، وعرض عليه الجمجمة، وشرح له ما يعتقد باسطًا له في الحُجَج كلما رأى في وجهه علامات الدهشة، فهذا شيء خارق بعيد التصوُّر؛ لأن الألفاظ نفسها لا تُؤدِّي إليه، يجب أن تُفسِّر معنى «الفناء» أو «العدم» أو «الموت» تفسيرًا محسوسًا، وهو

أمر لا قِبَل لأحدٍ به في هذا العصر، فلا يوجد شيء يموت حولهم، إنهم لا يذكرون وجود الحيوانات على الأرض، فقد انقرضت كلها منذ مئات الآلاف من السنين، أبادتها الحروب الذَّريَّة والكيميائيَّة التي مسحت وجه الأرض مسحًا، وحلقته حلقًا، وغسلته غسلًا من كل حيوان ونبات وطائر وسمك، فلم يَبقَ للإنسان غير جوف الأرض يعيش فيه بمصانعه وبمعامله، يطعم غذاءً من غازات كيميائيَّة تُطلق في البيوت (تستمد موادَّها من عناصر الجوِّ وإشعاعات الأجرام)، فضمرت معدته القديمة، واختفى جهازه الهضميُّ وفمه وأسنانه؛ فإذا هو رأس يفكِّر، وأنف يستنشق به غذاءه من الهواء، وطعامه من الغازات، ويدان ضعيفتان وساقان هزيلتان لقلة الاستعمال، لم يعد هناك فرق بين إنسان وبحر وكوكب، إنه مثلها خالد، ومثلها لا حاجة به إلى أن يعمل بيدَيه ليعيش، بل إنه الآن شِبه إلهٍ لا يلد ولا يُولد، يجهل الموت ويعرف الأبد ولا يُدرك الأمس ولا الغد.

وجد العالم الجيولوجي صعوبة في أن يُصوِّر لصديقه ما يُخامره من إحساس بنظريته؛ لأن الأمر يستوجب شعورًا بالحدود الزمنية، ليس أصعب من أن تُحدِّث «إلهًا» عن ماضيه أو مستقبله، فإن هذَين الوصفَين لا معنى لهما لِمَن «يوجد» دائمًا.

وأصعب من ذلك أن تُحاول إفهام «إله» خالد شيئًا عن «البداية» أو «النهاية»!

ونظر الصديق اللطيف إلى العالم الجيولوجي بسذاجة قائلًا له: إني أصدِّقك، ولكنِّي عاجز عن الفهم.

– حقًّا يا صديقي، إنها لَمشكلة، ومن العسير أن أُطالبك بإدراك شُعاع لا أتبيَّنه أنا نفسي، ربما كنتُ مخطئًا، ربما كان اشتغالي بتاريخ الطبقة الأرضية يُخيِّل لي أوهامًا، إن علمي ذاته لم يعد له محلٌّ، ولم يعد له احترام في نظر العلماء، ولم يَبقَ غيري حريصًا عليه مُتابعًا له، فالعلماء يُؤكِّدون أنه ليس هناك شيء يُسمَّى «التاريخ»؛ لأنه لا يوجد خلف «حاضرنا» الخالد غير وهم المخبولين، الحق أني لا أدري هل أنا مجنون، أو أني أرى شيئًا لا يراه غيري!

– إنك لست مجنونًا.

– إنك تثق بي، وهذا يسرُّني، ولكنَّه لا يُقنعني، إني أريد أن ترى ما أرى.

– سأحاول، ساعدني!

– نعم، أساعدك، قُصَّ عليَّ حياتك!

– حياتي؟! حياتي هكذا ... هكذا دائمًا ... هكذا ... إنك تعرفها، لا شيء فيها يتغيَّر.

– نعم، لا شيء فيها يتغيَّر! ولكن أتذكر ماذا كان أوَّل الأمر؟

– أتذكر؟ ما معنى أتذكر؟

– صدقت! لا يمكن أن تكون لنا ذاكرة ما دُمنا لا نعي الماضي ولا التاريخ.

لماذا تكدُّ ذهنك أيُّها الصديق في هذه الأشياء المُبهمة المُريبة، إني أخشى عليك، أخشى أن يُصيبك من المجتمع نقد وازدراء، إنهم يتهامسون عليك بالفعل وينصحون بالابتعاد عنك، ويقولون: إن بك خللًا غير مفهوم.

– وهل تبتعد عني أنت أيضًا؟

– لا، إني معك مهما يكُن من أمرك.

– أنا أيضًا لا أريد الابتعاد عنك مهما يحدث! ماذا أسمِّي هذا الإحساس؟!

وأطرق عالِم طبقات الأرض لحظةً كأنما يبحث عن تعليل لمشاعره الغريبة، إن كلمة «الحُب» كانت هي الأخرى قد انقرضت منذ مئات الآلاف من الأعوام، انقرضت بانقراض الميل الغريزي بين الذكر والأنثى. بعد أن تولَّت المعامل إفراخ النَّسل وبزوال الحب زال الشِّعر والفنُّ ولم يَبقَ مكانٌ لعاطفة غير عاطفة الزَّمالة أو الصُّحبة بين المواطن والمواطن من سُكَّان الأرض، وقلما التهبت هذه العاطفة حتى صارت إلى هذا اللون الغامض الذي يربط عالِمَ الجيولوجيا بصديقه! لقد زال اتصال «القلوب» وحلَّ محلَّه اتصال «الأفكار»، لذلك كانت الصلة القلبيَّة بين العالِم وصديقه غريبة في ذلك العصر غرابةَ ذلك الشعور الخفيِّ الذي يُحيِّر نفس العالِم الأثري.

وقلق الصديق على حال صاحبه، فقال له: لو استطعت أن توضِّح لي! لأوَّل مرَّة أعجز عن قراءة فكرك!

– فرفع العالِم رأسه ونظر إلى صديقه مليًّا، ثُم قال: لأن فكري مضطرب مُشوَّش، لا أستطيع أنا نفسي أن أستخلص منه شيئًا واضحًا، كل ما عندي إحساسٌ باهت شاحب سحيق الغَور.

– إحساسٌ بماذا؟

– إحساسٌ بأنه يجب أن يقع شيء بعد «وجودي»، يجب أن أُحسَّ لهذا الوجود «نهاية»!

– نهاية؟!

وبدا الجهد المُرهِق على وجه الصديق، عين ذلك الجهد الذي كان يُرهِق البشر منذ مليون سنة عندما كانوا يحاولون تصوُّر «اللانهاية»!

– نعم يا صديقي اللطيف، هناك سرٌّ مُغلق علينا، هناك سعادة منتظَرة خلف باب موصَد، هنالك لذَّة غريبة وراحة عجيبة في حجرة ممنوعة لم تطأها قدم.

– ألنا أن نأمُل فيها؟

– نعم لو استطعنا أن «لا نكون»!

– لست أفهم؟ تلك الحجرة الممنوعة علينا، تلك الحجرة التي تجثم فيها راحة من نوع مجهول لدينا، أُسمِّيها أنا «الموت».

– الموت؟

– نعم الموت.

لفظها العالِم في شِبه همسٍ كأنه يحلم، وكأنه يستعين بإلهامه الخفيِّ، ويستنير بإشراقه الداخليِّ ليلمح على ضوئه شبحَ ما يتخيَّل، إنه لَعسير على الخالدين أن يتخيَّلوا «الموت»، وإنْ كان الإله يعجز عن شيء، فهنا مكان عجزه، أن يكون في مقدوره أن يموت، وإنْ كان قد حُرِم شيئًا فهذا، ولا ريب، موضع حرمانه.

– هذه الراحة، هذه اللذة، هذه السعادة، هذا الذي تُسمِّيه «الموت» لا بُدَّ أن تصل إليه، نصل إليه معًا، ما دُمت تؤمن به، وأومن أنا بك.

قالها الصديق اللطيف برقَّة ملأت نفس العالِم ثقةً ورجاءً، وانتهى بذلك الحديث بينهما في تلك الجلسة، ولم يكن بالطبع حديثًا بالمعنى المعروف قديمًا؛ فإن هذا الإنسان في ذلك العصر لم يكن له فم، ولم تكن له لغة، إنما هي الأفكار تُنقل من رأسٍ إلى رأس، وأصحابها جلوسٌ في صمت.

ذاع خبر العالم الجيولوجي، وشاعت فكرته، واستفحل أمره، انضم إليه كثيرٌ من المُتشيِّعين له، وأحاط به وبصديقه المُتحمِّس رهْطٌ من المؤمنين به، وكان هذا أوَّل نبيٍّ ظهر منذ مئات الآلاف من الأعوام، فإن زوال الألم والأمل لم يدَع حاجة إلى رسالة أو رُسُل، أمَا وقد ظهر الأمل من جديد في صورةِ تَعطُّش إلى راحة مجهولة، يُبشِّر بها ذلك الإنسان الحالم الآمِل المؤمن، فلا أيسر من أن يجد أتباعًا يدينون بما يدين، ويسيرون إلى حيث يسير!

ولكن كانت أمامه عقبة، هي «المعجزة» التي يُطالبه بها كُفَّاره والجاحدون لأفكاره، وهم ما كانوا يَرضَون منه بغير معجزة واحدة؛ أن يُميت لهم الحي!

تلك كانت ساعة حرجه الكبرى، كيف يستطيع ذلك بمفرده؟ إن علماء الكيمياء وعِلم الأحياء يقفون منه موقفَ الخصومة والتكذيب.

لا بُدَّ أن تُعينه قوة خفيَّة، إذا كان حُلمه حقًّا، ووحيه صدقًا، وإلهامه صحيحًا.

وهنا لأوَّل مرَّةٍ أيضًا منذ أكثر من مليون سنة، يعود الشعور بوجود «الله» الأكبر إلى الظهور في النفس الإنسانية من جديد!

وصاح ذلك النبيُّ في أعماق نفسه: إذا لم أكن خدعت نفسي وخدعت أتباعي، فلا بُدَّ أن تُعينني على «المعجزة» قوةٌ في الكون أعظم من جميع القُوى!

وتجلَّت هذه «القدرة» كما تجلَّت لبعض الأنبياء من قبل؛ لأنها أرادت أن يكون هنالك تحوُّل في مجرى الإنسانية في ذلك العصر.

وإذا بنَيزك ضخم من نيازك السماء يضرب وجه الأرض ويغور فيها، فيسحق رأس إنسان فوق سطح بيته بجوف الأرض، عندئذٍ أسرع النبيُّ وأتباعه إلى ذلك الإنسان ليرقُبُوا ما وقع له، ولكن الحكومة عِلمت بالأمر، فبادرت تستخلص ذلك الإنسان من أيدي الأتباع، لتشرع في ترميم رأسه، ورفض الأتباع تسليمه، وأصرَّت الحكومة، فوقعت الفتنة، وحدث شغب هو الأوَّل منذ عشرات الآلاف من السنين، وانتصرت الحكومة آخر الأمر، وحملت الرجل المسحوق الرأس حيث عالجوه أو أخفَوه، لا أحد يدري، أمَّا النبيُّ فاعتقلوه وقدَّموه إلى المُحاكمة، فشهد عليه زملاؤه العلماء بأنه مخبول، وأن خياله خطير فحُكِم عليه بما يُحكَم على المجرمين والمفسدين، أيْ باستبدال رأسه، وهي عقوبة تُعادل إطاحة الرأس في الأزمان القديمة، فقادوه إلى معمل كهربائيٍّ وسلَّطوا على خلايا تفكيره أشعَّة خاصة؛ فإذا هي تضعف، فأحلُّوا محلَّها تفكيرًا آخر هادئًا دمثًا بسيطًا، لا شخصيَّة فيه ولا عنف ولا إرادة.

وهكذا اختفت شخصيَّة النبيِّ وإنْ لم يختفِ جسمه، ولكن رسالته ظلَّت باقية، فقد لبث صديقه وأتباعه ينشرون فكرته خفية عن الحكومة، مُؤكِّدين للناس أنهم رأوا «الموت» في شخص ذلك الإنسان المسحوق الرأس، ولولا أن الحكومة سارعت باختطافه لكانت «المعجزة» بادية للعيان في كل مكان.

مضى ألف عام اشتعلت خلالها العقيدة الدينية كما تشتعل الجمرات تحت الرماد، وآزر الحركةَ بعضُ أصحاب العقول الممتازة، ففصَّلوا في مبادئ الرسالة وشرَّعوا، ووضَّحوا فكرة «الله» الأكبر الذي في مقدوره مَنح الإنسان سعادة رُوحية، وراحة عُلوية.

إلى أن أتى يوم أدرك فيه الأتباع أن النظام القائم وحده هو الحائل دون تحقيق ذلك الحلم الإلهي.

فإنْ يعلم ذلك الحارس الصارم لجسم الإنسان، الذي يُحيط بقاءه بسياج من حديد، ويُعنى بخلود الجسد هذه العناية قد حجب عن الإنسانية عوالم الروح ومفاتنها.

وتمكَّنت هذه الفكرة من نفوس الأتباع، فقاموا ذات يومٍ بثورة جارفة اقتحموا فيها المعامل وحطَّموا الآلات، فاضطرب النظام وسادت الفوضى، وتعذَّر وصول الغازات المُغذِّية إلى كثيرٍ من السُّكَّان، فظهرت أعراض المرض على البعض.

وساءت حال البعض إلى حدِّ الخطر، وتوالت هجمات الأتباع، وزاد عددهم، واشتد ساعدهم، حتى استطاعوا يومًا أن يتجمَّعوا ويعتصموا بناحية من الأرض استقلوا بها، أقاموا عليها صرح دينهم الجديد، فطرحوا سلطان الإله القائم «العِلم» الذي أعطاهم جبروت «العقل» وسلبهم نعمة «القلب» ولذَّة «الغريزة»، وآمنوا بإله الكون الخالق للطبيعة، فتركوا له وللطبيعة الأمر.

ومرَّت مئات الآلاف من السنين، فظهر «الموت»، وبظهوره ظهر «الخوف»، ثُم غريزة المحافظة على النوع، ولَمَّا كانت معامل النَّسل قد دالت دولتها فقد بعثت الطبيعة في الأجسام رغبة الجنس، وعندئذٍ بدأ النوع يتفرَّع من جديد إلى ذكر وأنثى، وظهر «الحب».

وبظهوره ظهر «الفنُّ» و«الشِّعر».

وهكذا حكمت الطبيعةُ بإلهها الأكبر الأرضَ مرة أخرى، وعادت الأديان السماويَّة، وعاد الشُّعراء يُنشدون ويقولون:

أيُّها الخالق الأزليُّ، لك أنت وحدك الخلود والجبروت.
أمَّا نحن فلا نريد أن نكون سوى بشر؛
لنا جسم مرتوٍ، وقلب متقد، وعقل متئد.
أيَّتُها الطبيعة الرحيمة، لكِ أنتِ وحدكِ عمر الأبد.
أمَّا نحن فلا نُريد غير عمر الندى؛
تهبط من السماء عند الفجر،
وتصعد إلى السماء عند الضحى.

الاختراع العجيب!

اختراع عجيب، ليس بأعجب المخترعات، فما من شيء اليوم يثير دهشتنا أو يصدم خيالنا بعد أن عشنا العصر الذي نرى فيه ذرَّة لا تُرى تتحطَّم فتخرج منها قوة تُحطِّم مدينة عظيمة، ومع ذلك فإن الاختراع الذي أتحدَّث عنه سوف يكون له أشدُّ الخطر على مستقبل البشر.

هذا الاختراع، كغيره من المخترعات، فكرة ليست جديدة. لقد تخيَّلها «ويلز» في قصته «آلة الزمن»؛ هو «جهاز» مثل جهاز الراديو يستطيع كل إنسان اقتناءه، له جملة مفاتيح، إذا أدرت المفتاح الأوَّل شاهدت في مرآة الجهاز ما يحدث لك بعد عام، وإذا أدرت المفتاح الثاني أبصرت ما يقع لك بعد خمسة أعوام، وإذا أدرت المفتاح الثالث رأيت مستقبلك بعد عشرة من الأعوام. ولم يدخل بعدُ على هذا الجهاز من التحسينات ما يُمكِّن الأفراد من رؤية مستقبلهم أبعد من هذا المدى.

قد يسأل سائل: وأين هذا الجهاز؟ ولماذا لم يُعرض حتى الآن في الأسواق؟

حقيقة الأمر أن الشركة الأمريكية التي اشترت حقوق هذا الاختراع وتكفَّلت بصنعه وتعميمه، قد توقَّفت فجأةً عن المُضيِّ في هذا المشروع؛ ذلك أن المهندس الذي تولَّى تجربة أوَّل جهاز تمَّ صنعه لم يلبث أن انتحر بعد أيام، وأراد أحد مديري الشَّركة أن يُجرِّب الجهاز مدفوعًا بحب الاستطلاع، فلم يلبث هو الآخر أن انتحر بعد أسابيع، وتوالت سلسلة الانتحارات في ذلك المصنع بين العُمَّال والمهندسين والخبراء والمديرين، وكل مَن جرؤ على إدارة مفاتيح مستقبله في ذلك الجهاز العجيب.

قام البوليس الأمريكي عندئذٍ بالتحقيق، فلم يظفر بجواب أو بتعليل أو بتفسير، لأن مَن مات قد دُفن ومعه الجواب والتعليل والتفسير.

إلى أن كان يوم أسعف الناس مهندسًا حاول الانتحار، وأنقذوه هو وسرَّه من الموت، ودفعوا به إلى المُحقِّقين، فسألوه: لماذا أردت الموت؟

– إنني لم أتحمَّل الحياة.

– هل وقعت لك كوارث أثقلت كاهلك؟

– لا، لم يقع شيء بعد.

– إذَن أنت تخشى وقوعها في يوم من الأيام؟

– لم يحدث لي شيء في مدى عشرة أيام.

– هل أنت واثق من ذلك؟

– لقد رأيت ذلك بعينَي رأسي في مرآة الجهاز.

– ماذا رأيت؟

– رأيت نفسي كما سأكون بعد عام، وبعد خمسة أعوام، وبعد عشرة أعوام، لم أرَ شيئًا جديرًا بالنظر أكثر من أن كرشي قد برزت لي وبعض التجعُّدات في الوجه، وبعض الشَّيب، وبعض الترهُّل، وزيادة في مرتبي، وطفلة جديدة أنجبتها امرأتي، لها عويل يُصدِّع رأسي. يا لها من حياة مملة! أأنا أسير إلى هذا الغد السخيف؟! لطالما تخيَّلت المستقبل أجمل من ذلك وجهًا! فإذا هذا الوجه قد أصبح معروفًا لي بملامحه وخطوطه وقسماته وندوبه، كأنه وجه زميل عاديٍّ تافه يُصاحبني في العمل ويُلازمني في المسكن، لا أسمع منه جديدًا ولا أرى فيه طريفًا، كلا، إن المقام مع مثله مُحال، قد يدفعني إلى التريُّث والاحتمال أملي في أن يتغيَّر في الغد شيء، ولكن إذا كنت الآن أرى الغد بعيني فما قيمة الغد؟! وإذا كنت أعيش في انتظار ما تأتي به الأيام. وجاءت الأيام تُلقي في لحظة بكل ما لديها في حِجري، فما معنى الانتظار؟! ما فعلت بكل بساطة، لم أجد للانتظار معنًى بعد أن فقدت عنصر المفاجأة في حياتي!

فتأمَّل المُحقِّق قوله مُطرقًا مفكرًا، ثُم قال له وهو يحك رأسه: لا أستطيع أن أوافقك على هذا اليأس من الحياة.

فقال المهندس الذي شرع في الانتحار: ليس هذا يأسًا من الحياة، إنك لا تستطيع أن تفهم حقيقة إحساسي؛ لأنك لم تَرَ ما رأيت، إنه على كل حال ليس اليأس، بل شعور آخر لا أدري كيف أصفه لك، انتظر، ألم يسبق لك أن ذهبت إلى السينما فشاهدت رواية من آخرها بعد أن فاتك الشَّطر الأول؟

– بالطبع حدث لي ذلك.

– ماذا كنت تفعل بعدئذٍ؟

– كنت أنتظر العرض الثاني لأشاهد ما فاتني من الرواية.

– عظيم، وبعد أن تشاهد ما فاتك وتأتي الحوادث الأخيرة التي تسبق لك مشاهدتها، ماذا كنت تصنع؟

– كنت أنصرف طبعًا.

– قبل الختام؟

– طبعًا.

– ولماذا تنصرف؟

– ولماذا أنتظر وقد عرفت الرواية؟

– هذا بالضبط ما صنعته أنا بمجرد أن شاهدت الحوادث الأخيرة من حياتي في مرآة ذلك الجهاز، عرفت روايتي بكل حوادثها وعُقدها ومفاجآتها، فلماذا تريد مني أن أنتظر؟

هنا فقط فهم المُحقِّقون كارثة ذلك الجهاز المخيف، إنه يُجرِّد «الحياة الآدمية» من عنصر «الغيب» كما تُجرَّد «الرواية السينمائية» من عنصر «المفاجأة»، وبهذا التجرُّد تتفكَّك عُقدة الرواية، فتصبح شيئًا لا يستطيع أحد أن يحياه ولا أن يراه.

الأسطى عزرائيل!

الحياة أقوى من الموت، تلك حقيقة يراها مَن يتأمَّل حوادث يوم واحد من أيامه، إن الموت رابض لنا في كل خطوة، ومع ذلك نتفاداه وننجو منه في أغلب الأحيان ونقفز من فوق حبائله؛ لأن يد الحياة تقودنا وتُنقذنا. الموت والحياة يلعبان منذ الأزل لعبةً واحدةً لا يُغيِّرانها، هي اللعبة التي يُسمِّيها الأطفال «استغماية». الحياة والموت أحدهما يختفي للآخر ويتربَّص به في كل مكان، والآخر يقول له: «أراك وأعرف موضعك»! أرواحنا، نحن الآدميين المساكين، مُعلَّقة بكل شيء، وبأضأل شيء، إنها مُعلَّقة بأرجل الذُّباب، وإبر البعوض، ويد سائق السيارة والقطار والطيارة، بل إنها قد تهتز وتتأرجح بين أصابع حلَّاق يتناولك بالتزيين والتجميل وأنت أبعد الناس عن التفكير في شرٍّ أو خطر.

ذهبت في أوائل الصيف أحلق ذقني عند الحلَّاق، وأنا بالحياة فرِح مستبشر أُغنِّي في أعماق نفسي، وأصغي إلى أغاني الفلاحين وهُم يقودون صفوف الإبل مُحمَّلة بالبطيخ في أفخر شوارع القاهرة، وغرقت في المقعد، وأسلمت رأسي للحلَّاق وأغمضت عيني مستسلمًا لأعذب الأحلام، مستقبلًا بوجهي النسيم الصناعي من المروحة الكهربائية، ووضع الحلَّاق على ذقني الصابون الرَّطب، فشعرت بمتعة، وراح يسنُّ الموسى حتى لمع نصلها، وجاء فأخذ رأسي بين يديه، ثُم همس في أذني قائلًا بلهجة غريبة: لا مؤاخذة! إني أتوسَّم فيك ... فراستي لا تخيب، لي عندك طلب بسيط.

ورفع الموسى عن صُدغي منتظرًا، فبادرت أقول له: تفضَّل!

فأمسك برأسي واستأنف الحلاقة وهو يقول: هل تعرف حضرتك أحدًا في مستشفى المجاذيب؟

فدهشت، ولكنِّي قلت بهدوء: إذا كانت فراستك التي لا تخيِّب توسَّمت فيَّ أني كنت نزيل الدار، فإني أشكرك!

فأسرع يقول متأسفًا: العفو! العفو! لم أقصد ذلك، إنما أردت أن أقول إني أتوسَّم فيك حب الخير، وأنك لا بُدَّ أن تكون صاحب نفوذ، وتعرف أحدًا من أطباء المستشفى.

– لماذا؟

– لي شقيق مجنون أريد أن أُخرجه.

– مجنون؟ وهل شُفي؟

– إنه لم يكن مجنونًا خطِرًا، ولكنَّها دعوى باطلة من المستشفى كما تعلم حضرتك، إنهم دائمًا يرون حبس الناس بالظلم، كل ما في الأمر أنه أحيانًا تتراءى له خيالات، ويتصوَّر تصوُّرات لا ضرر فيها ولا غبار عليها، فلا هو هاج ولا ماج، ولا صرخ ولا صخب، ولا ضرب ولا بطش، ولا أحدث تلك الغوغاء والضوضاء التي يُحدثها المجانين الذين يُحبَسون في مستشفى المجاذيب.

– عجبًا! وماذا فعل إذَن حتى استحق أن يُحجَر؟

– لا شيء يا سيدي، المسألة بسيطة؛ شقيقي هذا كان حلَّاقًا مثلي، وكان يشتغل ذات صباح في أمان الله، وكان الوقت صيفًا، والحَر يُغري بالعطش كما لا يخفى عليك، وكان في يد شقيقي رأس زبون لا يتخيَّر على حضرتك، فشاءت له تخيُّلاته أن يتصوَّر رأس الزبون بطيخة، وكانت في يده الموسى، فأراد أن يشقَّها بالطول.

فارتعدت وصِحت في الحال: يشق ماذا؟

– يشق البطيخة، أعني رأس الزبون!

قالها الحلَّاق بكل هدوء، وبنبرة طبيعية.

فجمد الدم في عروقي، وكان رأسي وقتئذٍ في يده والنصل الحاد البرَّاق يمر عند الحلق، فأمسكت أنفاسي خوفًا وجزعًا، ولكنِّي لم ألبث أن تجلَّدت وقلت له بوداعة ورفق لأُدخل عليه الرضا وعلى نفسي الاطمئنان: طبعًا شقيقك هذا شاذٌّ في العائلة.

فقال بهدوئه المعتاد ونصله فوق حلقي: الحقيقة أن هذا شيء في العائلة كلها، أنا نفسي أحيانًا تخطر لي تصوُّرات عجيبة، خصوصًا في موسم البطيخ، كلام في سرِّك شقيقي معذور!

ولمعت عين الحلَّاق ببريق عجيب يُضاهي بريق النصل الذي فوق حلقي، فأيقنت بقرب الساعة. وتشهَّدت على نفسي وترحَّمت.

وأغمضت عيني مستسلمًا لا للذيذ الأحلام هذه المرة، بل لمجيء الموت وخروج الروح، ولم أفتحهما إلَّا على صوت رشَّاشة الكلونيا وهي تمطر وجهي، وعلا صوت الحلَّاق وهو يقول لي: نعيمًا!

فانتفضت ونهضت كمَن وُلد من جديد، ودفعت حسابي والحلَّاق في أثري يوصيني بشقيقه والتوسُّط في إخراجه، وأنا لا أسمع منه ولا أعي، وما إن وضعت قدمي في الطريق حتى تنفست الصُّعداء، وأقسمت أن أحلق بيدي، أو على الأقل لا أدخل عند هذا الحلَّاق في موسم البطيخ.

معجزات وكرامات!

استيقظ الراهب مبكرًا كعادته، لم تسبقه غير العصافير الناهضة من أعشاشها، وقام إلى صلاته وعبادته وعمله في تلك البيعة من إقليم الشرق، فقد كان ذلك القسيس روحها ونورها، له عند رجال الدين منزلة، وله عند الناس احترام، وكان أمام الباب نخلة صغيرة غرسها بيده، واعتاد أن يسقيها قُبيل الشروق، وأن يتأمَّل الشمس يبزغ طرفها من الأفق أحمرَ كالبلحة، ثُم ترسل أشعَّتها إلى السعف المُندَّى، فتسقط عنه قطرات الفضَّة لتلفَّه في خيوط كالذهب.

فرغ القسيس في ذلك الصباح من سقي النخلة، وهمَّ بالدخول، وإذا أمامه جماعة يبدو عليهم الغمُّ والحزن، تجرَّأ واحد منهم وقال بنبرة الضراعة: أبونا! أنجدنا! وليس مَن ينجدنا غيرك!

امرأتي على فراش الموت، وهي تلتمس منك أن تُباركها قبل أن تلفظ النفس الأخير.

– أين هي؟

– في قرية مجاورة، والمطايا حاضرة!

وأشار الرجل إلى حمارين مُسرجَين في الانتظار، فقال الراهب: إني لست على استعداد يا أبنائي! تمهَّلوا حتى أُرتِّب شئوني وأُخبر إخواني، وأعود إليكم لتمضوا بي.

فقالت الجماعة في صوت واحد: لا نملك دقيقة! المرأة تحتضر، وربما وصلنا إليها بعد فوات الأوان، امض معنا الآن من فورك إذا أردت أن تكون بنا بارًّا كريمًا، وللمرأة التي تموت مُنقذًا رحيمًا، والمكان قريب، وستذهب وتعود قبل أن تستقر الشمس في الضحى!

– هلُمُّوا بنا!

قالها القسيس بصوت فيه حماسة الشهامة وحرارة المروءة، وتقدَّم والجماعة خلفه حتى اقتربوا من الحمارين، فركبوا أحدهما، وركب زوج المحتضرة الآخر، وانطلقوا خارج البلد.

وجعلوا يضربون الأرض ساعات، والقس يسأل عن الموضع، وهم يحثُّون الحمار بالنَّخس قائلين: «وصلنا.» فما لاحت لهم القرية إلَّا وقد انتصف النهار، ودخلوها فاستقبلتهم كلابها بالنُّباح، وأهلها بالترحيب، وتوجَّه الجميع إلى الدار بالقرب من «داير الناحية»، وقادوا القسيس إلى قاعة وجد فيها المرأة طريحةً على فراش، وقد شخصت ببصرها إلى السماء. ناداها فلم تجب، فهي من المنيَّة قابَ قوسَين! فشرع يستنزل عليها البركة، ولم يكد يفرغ من ذلك حتى لفظت آهةً طويلة شفعتها بشهيق عميق ظنَّ معه القسيس أن روح المرأة تفيض، ولكن أهدابها ارتعشت، ونظرتها لانت، وتلفتت تهمس: أين أنا؟

فقال القسيس دهشًا: أنتِ في دارك!

– عليَّ بشربة ماء!

فصاح أهلها من حولها: هاتوا القُلَّة! هاتوا الجرَّة!

وتسابق القوم إلى الإناء فأحضروه، وشربت المرأة طويلًا وتجشَّأت، ثم قالت: أمَا من طعام؟ إني جوعى!

فبادر كل مَن في الدار يأتي إليها بطعام، وطفقت المرأة تلتهم الأكل، والعيون من حولها تلتهمها دهشةً وعجبًا، ثُم تركت فراشها ونهضت تمشي في الدار كاملةَ الصحَّة موفورةَ العافية!

وعندئذٍ خرَّ القوم على يدَي القس ورجليه، يشبعونها لثمًا وتقبيلًا، ويصيحون: أيُّها الرجل المبارك! لقد حلَّت بركتك في الدار، وأحيت بركتك الميتة! ماذا في قدرتنا أن نُعطيك وفاءً منَّا بواجب الشكر، واعترافًا منَّا بالجميل؟!

فقال القسيس الذي أذهله الحادث: إني ما صنعت شيئًا أستحق عليه أجرًا أو شكرًا، ولكنَّها قدرة الله.

فقال صاحب الدار: سمِّها ما شئت! إنها على كل حال معجزة أراد الله أن تتم على يديك أنت أيُّها الرجل المبارك! ولقد حللت في دارنا المتواضعة، وإنه لَشرف وحظ ونعمة، ولا بُدَّ أن نقوم بحق الضيافة على قدر ما تسمح به حالنا!

وأمر بحُجرة منعزلة فأُعدَّت للضيف، وكلما استأذن القسيس في الانصراف حلف صاحب الدار بكل مُحرج من الأقسام ألَّا يدع ضيفه المبارك يذهب قبل ثلاثة أيام، أقل ما

يجب نحو مَن أنقذ حياة امرأته، وجعل يحفُّه بالعناية ويغمره بالتكريم حتى انقضت مدة الضيافة، فأسرج المطيَّة وحمَّلها بالهدايا من فطير وعدس ودجاج، ووضع في يد القسيس خمسة جنيهات لصندوق الكنيسة، ولم يكد يُشيِّعه إلى الباب ويُقيمه على الحمار حتى أقبل رجل يلهث، وارتمى على قدم القسيس يتوسَّل ويقول: أبونا! حديث معجزتك بلغ القُرى المجاورة، لي عمٌّ في مقام أبي على فراش الموت، وهو يأمُل في بركتك، فلا تترك روحه تصعد قبل أن تُحقِّق أمله!

فقال القسيس مُتردِّدًا: ولكنِّي يا بُنيَّ قد تهيَّأت للعودة!

– هذا أمر لم يستغرق منك وقتًا، ولن أدعك حتى تذهب معي إلى عمِّي.

وأمسك بزمام الحمار وسار به، فقال القس: وأين عمُّك هذا؟

– ها هنا، على مسيرة دقائق.

فلم يرَ القسيس بُدًّا من الإذعان، وسار مع الرجل ساعةً إلى أن دخل القرية الثانية، ورأى فيها دارًا كالدار الأولى، ومريضًا على فراش قد أوشك على الموت، وحوله أهله يتقلَّبون بين اليأس والرجاء، فما إن دنا القس من المريض واستنزل عليه البركة حتى حدثت المعجزة؛ فإذا المحتضر يهبُّ قائمًا يطلب الطعام والشراب، والقوم من الأمر في دهشة، ويحلفون بالأيمان المُغلَّظة أن يُؤدوا نحو الرجل المبارك واجب الضيافة ثلاثة أيام بالتمام.

وانقضت مُدَّة الضيافة بين تكريم ورعاية وحفاوة وعناية، وشيَّعوا الضيف إلى أبواب القرية مثقلًا بالهدايا، وإذا رجل من قرية ثالثة يفد عليه، ويدعوه إلى زيارة قريتهم لتحلَّ البركة، ولو لمقدار ساعة، فإن شهرة القسيس المبارك قد طبقت جميع القرى، وما استطاع القسُّ من الرجل خلاصًا ولا فكاكًا، فقد قاد ذاك الرجل لجام الحمار، وذهب به إلى دار في قريته وجد فيها غلامًا كسيحًا، ما إن لمسه القسُّ حتى نهض يركض على قدميه ويجري بين تهليل أهل الدار وهتاف الصغار والكبار، وأقسم الجميع على واجب الضيافة نحو صاحب المعجزات، فأدُّوها على أحسن وجه ثلاث ليالٍ، لا تنقص ليلة، أُسوةً بغيرهم، حتى إذا انتهت المُدَّة قاموا إلى الضيف فأضافوا هدايا جديدة إلى ما معه من هدايا، حتى كاد ينوء بها حماره، ونفحوه من المال فوق ما مُنِحَ في القريتين السابقتين من مال حتى اجتمع له ما يربو على عشرين جنيهًا، وضعها في كيس أخفاه في صدره وامتطى الحمار وطلب من أهل الدار أن يحرسوه حتى بلده، فهبُّوا كلهم إليه وساروا خلف مطيَّته وهُم يقولون: نحرسك بقلوبنا ونفديك بأرواحنا! ولن نُسلِّمك إلَّا إلى ذويك، فأنت عندنا تساوي ثقلك ذهبًا!

فقال القسُّ ولم يفطن إلى عبارتهم: سأُحمِّلكم بعض المشقة، ولكن الطريق غير مأمونة، والعصابات اليوم منتشرة في الأقاليم كما تعلمون!

فقالوا: حقًّا إنهم ها هنا يخطفون الآن الرجال في رائعة النهار!

فقال القس: حتى السلطة عاجزة عن دفع هذا الشرِّ المُستطير، لقد قيل لي إن عصابات الخطف تستوقف اليوم السيارات العامة في الطُّرق الزراعية، وتصعد تُجيل الأنظار في الرُّكاب، فمَن وجدته على شيء من الوجاهة والثراء أنزلته وجرَّته معها؛ لتُطالب أهله بعدئذٍ بديَّة كبيرة، وقد كان ذلك يحدث أحيانًا وبعض رجال الأمن في السيارات، علمت أن اثنين من رجال الحفظ كانا ذات مرَّة بين رُكَّاب سيارة من تلك السيارات، فلما اعترضتها العصابة، واختارت من الرَّكب مَن اختارت، استغاث برجُلَي الحفظ الحاضرَين، فما كان منهما — لخوفهما من بأس اللصوص — إلَّا أنْ قالا للمخطوف: انزل معهم وخلصنا!

فضحك القوم، وقالوا للقس: اطمئن! ما دمت معنا فلن تنزل من فوق حمارك إلَّا في بلدك!

– إني أعرف شهامتكم! لقد غمرتموني بكرمكم وتقديركم وسخائكم!

– لا تقل ذلك، أنت كنزنا.

وساروا خلف القسِّ يتحدَّثون بمناقبه، ويفيضون بذكر معجزاته، وهو يُصغي إلى حديثهم ويتأمَّل ما وقع، وأخيرًا صاح: حقًّا هذا شيء عجيب ما حدث لي هذه الأيام! أتُرى إلى بركتي وحدها يعود الفضل كله في هذه المعجزات؟

فقالوا له؟

– وهل تشك في ذلك؟

– إني لست نبيًّا حتى أقوم بذلك كله في سبعة أيام، ولكنَّكم أنتم الذين جعلتموني أصنع هذه المعجزات!

فقالوا جميعًا في صوت واحد: نحن؟! ماذا تعني؟

– نعم أنتم المصدر الأول!

فتبادلوا النظرات، وهمسوا: مَن قال لك هذا؟!

فمضى القسُّ يقول باقتناع: إيمانكم! إنه الإيمان جعلكم تُحقِّقون كل ذلك، إنكم لا تعرفون ما في نفس المؤمن من قوة، الإيمان قوة يا أبنائي، الإيمان قوة! المعجزة ثاوية في قلوبكم كالماء في الحجر، لا يُفجِّرها غير الإيمان!

وظلَّ بمثل هذا الكلام يتحدث، والقوم خلفه يهزُّون رءوسهم، وأمعن في حماسة القول وحرارة الوعظ، فلم يفطن إلى القوم خلفه وهم يتسلَّلون الواحد بعد الآخر، فما بلغ حدود

بلده وثاب إلى نفسه، والتفت خلفه يشكر مُشيِّعيه وحارسيه حتى عَقَد لسانه العجب، لم يجد خلفه أحدًا إلَّا الحمار الذي يحمل أشياءه!

ولم تطل دهشته، فقد وجد ذويه وإخوانه ومرءوسيه من رجال الكنيسة يندفعون نحوه، يضمُّونه ويلثمون يده، وعبرات الفرح والتأثُّر تسيل على خدودهم، وتماسك واحد منهم وقال: عدت إلينا سالمًا أخيرًا! لقد وفوا بوعدهم، فليأخذوا الأموال، وليعطونا «أبونا»! كل مال فداك يا «أبونا»!

وفطن القسُّ إلى كلمة المال، فصاح: أيُّ مال؟

– المال الذي دفعناه للعصابة!

– أيُّ عصابة؟

– التي خطفتك! لم ترضَ بأقلَّ من ألف جنيه أوَّل الأمر قائلين: إن ثقلك يُساوي ذهبًا! ولكنَّا توسلنا إليهم أن يقبَلوا النصف، فرضوا أخيرًا، ودفعنا لهم ديَّة إرجاعك من صندوق الكنيسة؛ خمسمائة جنيه!

فصاح القس: خمسمائة جنيه دفعتموها من أجلي؟! قالوا لكم إني كنت مخطوفًا؟

– نعم، بعد اختفائك بثلاثة أيام جاءتنا جماعة، وقالوا إن عصابة خطفتك في الصباح وأنت أمام الباب تسقي نخلتك! وأقسموا لنا إنك هالك إنْ لم ندفع لهم ديَّتك، أمَّا إذا دفعنا فإنك تحضر لنا سالمًا بعد ثلاثة أيام من الدفع!

فتأمَّل القسُّ هذا القول، وكرَّ بذاكرته إلى ما وقع، وقال كالمُخاطب نفسه: حقًّا! هذا معقول، هؤلاء الموتى والمرضى والعجزة الذين هبُّوا ناهضين من بركتي! يا لها من براعة!

وأقبل ذووه من جديد يفحصون جسمه وثيابه قائلين فرِحين: كل شيء يهون إلَّا سلامتك يا «أبونا»! لعلهم لم يُسيئوا إليك في أيام خطفك! ماذا صنعوا لك؟!

فقال وهو ذاهل: جعلوني أصنع معجزات، ولكنَّها معجزات قد كلَّفت الكنيسة ثمنًا باهظًا!

مؤتمر الحب!

كانوا أربعة حول مائدة «قهوة» على شاطئ النيل، ينظرون إلى غروب الشمس صامتين، ويتأمَّلون كالحالمين أشعَّتها الشاحبة تُلوِّن بحُمرة خفيفة قلاعَ المراكب البيضاء، كما كان الحياء — فيما مضى — يُلوِّن وجه العذراء.

هؤلاء الأربعة هُم صحفيٌّ وشاعر وموسيقيٌّ وامرأة، كل شيء فيهم كان ينمُّ على أن المرأة معبودتهم، ولكنَّهم يكتمون، أمَّا هي فلم تُظهر بعدُ إلى أيِّهم مالت، ولا أيَّهم اختارت.

طال صمتهم حتى ضجر أحدهم، فصفَّق بيديه وصاح: أفيقوا وافتحوا لنا.

– زجاجة «شمبانيا»!

قالها الموسيقيُّ على عجل، فقاطعه الشاعر: بل موضوعًا نتحدَّث فيه.

فقال الصحفي: في السياسة بالطبع.

– أعوذ بالله! إني أقابل هذا الاقتراح بالرَّفض.

– أتريد أن يكون لك أنت أيضًا في مجلسنا هذا حق «الفيتو» أو الاعتراض والنقض؟!

فتدخَّل الشاعر حسمًا للنزاع: إذا أردتم الإنصاف فإني أقترح أن يكون الموضوع مِمَّا يُهمُّنا جميعًا، ابحثوا عن موضوع يُهمُّ الجميع!

– الحب.

أطلقتها المرأة كما تُطلق قنبلة صاروخية بسرعة وبغير تردُّد، ونبرة الواثق المطمئن.

– الحب؟!

خرج اللفظ من أفواه الرجال، كما تخرج كلمة «آمين» من أفواه المصلين.

ومضت المرأة تقول: إنه بالتأكيد يُهمُّكم أجمعين، إنه يُهمُّ الصحفيَّ، وهل تستطيع أيُّها الصحفي أن تنكر أن أعجب خبر نُشر في القرن العشرين هو حبُّ ملك الإنجليز لـ «ليدي سمبسون»، ونزوله عن العرش الضخم من أجل هذا الحب؟ وأنت أيُّها الشاعر، هل تجحد

أن الحبَّ هو الذي أثار حرب «طروادة»، وألهم «هوميروس» الإلياذة أخلد شعر على الدَّهر؟ وأنت أيُّها الموسيقيُّ، هل تنفي أن المزمار منذ وُجد، والقيثارة منذ صُنعت لهما هدف غير التعبير عن الحب؟!

– فقال الجميع بصوت واحد: صحيح.

وسكتت المرأة سكوت المنتصر الذي اعتاد الظَّفر.

ولكن الرجال الثلاثة ما لبثوا أن التفتوا إليها، وسألوها بلسان واحد: وأنتِ؟

– أنا!

وبدت الحيرة في وجهها قليلًا، أمجانين هُم؟ أتُسأل امرأة عن أمر هو بالنسبة إليها البداهة عينها؟ ولكنَّها تماسكت وتصنَّعت ومثَّلت، وهي بالسليقة خير مُمثِّلة، وقالت: الحب؟! لست أدري ما هو أيُّها الصحفيُّ، وأنت أيُّها الموسيقي، ثُم أنت أيُّها الشاعر، أخبروني: ما هو الحب؟ ومَن استطاع منكم إقناعي فاز بقلبي!

وغرقت في مقعدها، وأسندت رأسها إلى كتفها، وتأهَّبت للاستماع إلى الرجال الثلاثة وهم يتبارون أمامها لنَيل الجائزة الكبرى!

تنحنح الصحفي وهرش رأسه، ثُم قال: اللهم اجعل قلبها من نصيبي! تُريدين أن تعرفي ما هو الحب؟ الحب هو «خبر» يُسْتَقَى من القلب، ويُسأل فيه العقل فيكذِّبه، ولكن القلب يؤمن به ويُجازف بإعلانه متحملًا وحده مسئولية النشر!

فقال الموسيقي: بل الحب «لحن» يُعزف على أوتار القلب، وكلما قطع العقل منه وترًا، زاد اللحن طربًا!

وقال الشاعر: إنما الحب «قصيدة» تنفجر من القلب معانيها، وتخبو روعتها إذا وضع العقل أوزانها!

فقالت المرأة: إني لم أسألكم تعاريف، إنما أريد منكم تجاريب، قولوا لي ماذا يحسُّ كلٌّ منكم إذا اخترته حبيبًا لقلبي؛ أنت أيُّها الصحفي بماذا تشعر؟

فقال الصحفي: أشعر أني أغار عليكِ من هذه الشمس الغاربة لو لمست أشعَّتُها خدَّيكِ، خشيةَ أن تخطف وهي ذاهبة شيئًا منكِ، ولن أسمح بابتسامة منك تُلقى إلى هذَين الصديقين، بل اللصين، إنهما سينقلبان في نظري نشَّالَين يتربصان بلؤلؤة من لآلئ بسماتك وكلماتك ونظراتك، لن أدع مخلوقًا يأمُل في ذرَّة من فُتات مائدتك الحافلة بالسحر والفتنة، كل الرجال يُصبحون في عيني قُطَّاع طُرق إذا اقتربوا من كنوزك.

قالت المرأة باسمة: وما بالك الآن هادئًا، لا تحرص لا تغار؟!

– أحرص وأغار الآن على ماذا؟ إن عطفك علينا الساعة نحن الثلاثة لطيف، ولكنَّه يدفعني إلى شيء، وأين هو ذلك الذي يحرص دون الباقين على أن يُسوِّر قطعة أرض يملكها بالمَشاع مع آخرين؟ إذا ملكت أنا وحدي حرصت وغرت وسوَّرت.

– الملكيَّة إذَن هي أساس الحب عندك!

قالتها، والتفتت إلى الشاعر: وأنتَ ما شعورك لو آثرتك بحبي؟

فقال الشاعر: أحسُّ أنكِ قد طلعت من مشرق «قلبي» لتحُلِّي في الدنيا محلَّ تلك الشمس الغاربة، أحسُّ أنك ضياء حياتي، وضياء كل الكائنات، أشعَّة عينيك دفء لي ولكل المخلوقات، سأُدرك أن جمالك لم يُخلق لسعادتي وحدي، وأنك، كهذه الشمس، أكبر من أن تملكها يداي بمفردي، وإنما أنتِ نعمة للناس، لن أغار إذا أرسلت نسماتك كالأشعَّة تملأ قلوب العباد نورًا ورحمةً وسلامًا، سأسير إلى جانبك مزهوًّا فخورًا كلما رمقتك العيون؛ لأني سأعرف أن الجماهير قد رأت فيكِ ما أرى، وأُعجِبت بما أُعجَب، وآمنت بما أومن، إن آية الله في حُسنكِ يجب أن تُبلَّغ للناس كافَّةً، ما أنتِ إلَّا كتاب مقدَّس لم ينزل لأتلوه وحدي دون البشر!

– الشيوعية إذَن هي أساس الحب عندك!

ونظرت إلى الموسيقي: وإذا فضَّلتك أنتَ؟ فماذا تشعر؟

فقال الموسيقي: أشعر أن شمس الفنِّ قد أشرقت في قلبي، ولن يكون لها بعد اليوم غروب، فإن الألحان التي ستخرج من وحيك لن يسمع مثلها بشر، إن قيثارة «أورفيوس» التي قاد بها الضواري والأنعام لن تلحق بقيثارتي التي سأخلب بها العقول وأستلب الأفهام، لن تعرفي موتًا أبدًا أيَّتُها المرأة؛ لأن الخلود هو هديتي إليكِ، أنغامي تهبط من إلهامك كما يهبط الندى من صميم الفجر، ستبقى على الدهر تُردِّدها الأفواه بعد الأفواه.

– الفن إذَن هو أساس الحب عندك!

وأطرقت في شِبه يأس، وطال إطراقها.

فاستعجلها الجميع في صبر نافد: تكلَّمي واحكمي وانتخبي من بيننا.

فقالت: لا أريد رجلًا يحب الامتلاك أكثر مني، ولا أحب رجلًا يعبد ذاتي أكثر من ذاته، ولا أبغي رجلًا يهيم بفنِّه أكثر من شخصي.

وأشاحت بوجهها عن الثلاثة، وطفقت ترسل بصرها إلى الشَّفق الأحمر المُراق على مصرع الشمس عند الأفق.

وخيَّم صمت قطعه الصحفيُّ قائلًا: أرأيتم؟ أمَا كان خيرًا لنا أن نتحدَّث في السياسة؟

فوافق الموسيقي بهزِّه رأسه، ولكن الشاعر قال: وهل تحسبوننا خرجنا عن السياسة؟ يا للمرأة!

– إنها مثل الدنيا لا يدري الإنسان كيف تُفهَم، ولا كيف تُحكَم! تضاربت فيها المذاهب، وتناقضت النظريات من رأسماليَّة إلى شيوعيَّة إلى فنيَّة ... إلخ، فما اهتدى أحد إلى مفتاحها، ولا وُفِّق إلى فكِّ عُقَدها ومعضلاتها، ولا إلى فتح مغاليقها، ولا إلى حلِّ رموزها وأسرارها.

فعادت إليهم المرأة بوجهها قائلة: لأنها أبسط من ذلك كله لو تعلمون!

امرأة غلبت الشيطان!

كانت دميمة هذه المرأة! لم تعرف ربيع العمر، ولكنَّها عرفت خريفه وشتاءه، لم يورق لها أمل، ولكن دموعها هطلت كالمطر، والفرح تساقط في قلبها كأوراق الشجر، وبرد الحرمان من مُتع الجسد قد ضرب من حولها نطاقًا، إنها جزيرة الكآبة في محيط الكون، هكذا تعيش، وهكذا ستموت، لن يضمَّ خصرَها رجلٌ، ولم تعرف شفتاها غير الصلواتِ لسماء لا تسمع واللعناتِ على قدر لا يرحم.

وفي ذات ليلة عصفت فيها الرياح الهوج، وزمجرت الزوابع الثائرة لا خارج حجرتها، بل داخل نفسها! صاحت صيحة اهتزت لها أركان كيانها القبيح: أيُّها الشيطان لم يبقَ إلَّا أنت!

وأطرقت في شِبه غيبوبة! وإذا الجدران تنشقُّ ويظهر لها الشيطان كما ظهر من قبلُ للعلَّامة «فوست»، والشيطان لا يصمُّ أذنيه عن الدعاء، إنه مرهف السمع، سريع في تلبيته النداء، قال لها: ماذا تريدين أيَّتُها المرأة؟

– الجمال، الحياة، المتعة!

لفظتها كما يلفظ الظمآن كلمة «الماء» في تيه الصحراء، فقال لها الشيطان: أتعرفين الثَّمن؟

– خذ الثَّمن الذي تريد!

– روحك أذهب بها إلى الجحيم! ذلك عملي في الأرض؛ أسعى لجمع الأرواح أُعمِّر بها مملكتي «جهنم» لنرى آخر الأمر أيُّهما الظافر بأكبر تعداد؛ أنا الجالس على عرش النار، أم ذلك على عرش الفردوس!

– أعطني المتعة في الأرض عشر سنين، ثُم اذهب بي بعد ذلك إلى حيث شئت، إن الجحيم لا تُخيفني، فأنا الآن في جحيم!

– اتفقنا، لك المتعة عشر سنين، وأنتِ لي بعد ذلك.

– وحرَّرا بدم المرأة الصكَّ المعهود، ووقَّعت عليه بإمضائها، ومسَّ الشيطان بيده جسد المرأة، فانتفضت، وأشار لها بإصبعه إلى مرآة الخزانة، فنظرت، فإذا جمال يُضيء منها كأنه شهاب، إنه جمالها، أهي صاحبة هذا الجسم؟ ألها هي هذه الرَّوعة والفتنة والسِّحر؟

وألقت المرأة نفسها في نبع الحياة تعبُّ، وغمرت جسدها في بحر الملذات يغوص، وجرفها تيار الأيام إلى السنة العاشرة، فطفت على السطح كالقِربة، ارتوت وامتلأت بماء المُتع وانتفخت.

وجاءها الشيطان وفي يده الصكُّ يُذكِّرها بقرب الموعد، فقالت له: نعم، أذكر ولم أنس، ولكن …

– ولكن ماذا؟

– هنالك مُتعة أشعر لها بظمأ.

– أهنالك من المُتع ما لم تذوقيه بعد؟

– مُتعة الروح! تلك مُتعة لا بُدَّ أن تأذن لي بها طبقًا للصكِّ، ألم تتعهَّد لي بأن تُنيلني كل المُتع في عشر سنين؟ أمامي شهران حتى أُتمَّ المُدَّة، لقد سئمت المُتع الجسدية، بي عطش شديد للمُتع الرُّوحية، أنِلْني مُتعة الروح أيضًا في هذين الشهرين، وخذ روحي إلى الجحيم!

– لكِ ما أردتِ، إني كما ترين أمين في تنفيذ الشروط.

واختفى وترك المرأة، فقامت لساعتها وخلعت دمالجها، ونبذت بهارجها، وارتدت الخشن من ثياب النُّسك، وذهبت وأدَّت فرائض الحج، وغرقت في التأمُّلات السامية، وانقطعت للأعمال الصالحة، وأوغلت في الحياة العُليا الطاهرة، حتى انصرم الشهران، وجاء الشيطان يُطالب بوفاء العهد؛ فإذا هو يرتعد لمرأى المرأة، يا له من جمال يُدثِّر كيانها! ليس هو الجمال المُضيء كالشهاب المحرق، ولكنَّه نور عميق لطيف يعرف مصدره العلويَّ، فارتاع منه، لكنَّه تجلَّد وتقدَّم نحو المرأة قائلًا: حانت الساعة، هيَّا معي إلى الجحيم!

– هلُمَّ بنا!

قالتها المرأة طيِّعةً مُذعنةً لا مَطْل في لهجتها ولا في نيَّتها، وسار الشيطان، وسارت هي خلفه حتى بلغا باب جهنم، فلمَّا أحسَّ الزبانية بقدوم ملكهم، فتحوا الأبواب على مصاريعها، فدخل ملك النار، وأرادت المرأة أن تدخل خلفه، فما إنْ وضعت قدميها على العتبة، حتى هبَّت في الجحيم ريح تراجعت لها ألسنة اللهب، فدبَّ الذُّعر في قلوب الزبانية، ودهش الشيطان وفزع وصاح، وقد ردَّد صيحته أهل النار: ما هذا؟ ما هذا؟

وهنا امتدَّت أيدي الملائكة حُرَّاس الجنة، فاختطفت المرأة وهي تصيح قائلة للشيطان: هذه المرأة لنا.

فصاح الشيطان: بل هي لي، روحها لي بمقتضى الصكِّ، انظروا!

– نحن لا ننظر في صُكوك، بل ننظر في أرواح، هذا روح من أرواح الجنة.

– بل من أرواح النار، لقد دُمغ بطابع النار منذ عشر سنين.

ولكن نسيم الجنة دخل فيه منذ شهرين، هذا النسيم الذي ترونه كريحٍ صرصرٍ لا تُطيقها نيرانكم، ولا يقف في وجهها لهبكم.

– لقد خدعتني إذَن هذه المرأة!

وعندئذٍ صاحت المرأة وهي في أيدي الملائكة: لم أخدعك، إني وفيَّة بعهدي، خذني إلى الجحيم، دعوني أيُّها الملائكة أذهب إلى الجحيم، هكذا وعدت، ومن الفضيلة أن أبرَّ بوعدي ولا أنكث عهدي ولو مع الشيطان!

فقال الشيطان: أسمعتم؟ إنها لي، دعوها تلحق بي!

فجذبها الملائكة إلى الجنة وهم يقولون: لو تنكَّرت لك الساعة وتنصَّلت لَدفعنا بها إليك.

– يا له من منطق! إنها تصيح بكم معترفةً أنها لي، فيكون هذا حُجَّة عليَّ ودليلًا ضدي؟! لقد أقرَّت بالصكِّ، أقرَّت بأن روحها لي.

– نعم روحها الأوَّل، ولكن أين الآن روحها الأوَّل؟ لقد أعطتك روحها الأوَّل فابحث عنه، أمَّا روحها هذا فهو لنا، هلُمِّي بنا أيَّتُها المرأة الطاهرة.

فتوسَّلت المرأة قائلة: إنها جريمة أن أنكص عن الوفاء، دعوني بربكم أذهب إليه، وأُكفِّر عن ذنوبي الأولى.

فقالت الملائكة: ليس لكِ ذنوب أولى، لقد ذابت في نور طهرك الأخير.

– إذَن لا تعرضوني لذنب جديد؛ هذا المَطْل لصكٍّ واجب الوفاء.

– لا شأن لك بهذا الأمر! هلُمِّي بنا! هلُمِّي بنا!

فصاح الشيطان: يا للعجب! امرأة فاضلة تريد الحرص على شرف كلمتها، فتأبون أنتم إلَّا تحريضها على سفالة الخلق!

فقالت الملائكة: أتعترف بأنها امرأة فاضلة؟ إذَن أين تذهب الفاضلات من النساء؟ إلى النار أو إلى الجنة؟

وهنا ضاق الشيطان بالجميع ذرعًا، فقال: تبًّا لكم! تبًّا لكم! خذوها وخلِّصوني، أليست روح امرأة؟! إنها ليست أكثر من امرأة، فلتذهب إلى ... إلى الجحيم، أقصد إلى الجنة، ولكنِّي لن أنسى أنها خدعتني، خدعتني يوم سمَّت «الفضيلة» مُتعة!

الحبيب المجهول!

مَن هو؟! لم أكن أدري أين هو! وهل كنت أدري؟ مصيبتي هي جهلي به، ولو أني كشفت عن حقيقته في الوقت المناسب لما كان قد حدث لي الذي حدث!

القصة بسيطة، تقع لكل إنسان في كل حين؛ سيارة يقودها صديق، يمر بك في الطريق، فيقف ويدعوك مُتفضِّلًا إلى الركوب، ليُوصلك إلى حيث تريد، ماذا في هذا من غريب أو مريب؟ لا شيء بالتأكيد، وهذا ما وقع لي بالضبط.

كنت أسير ذات عصر في طريقي إلى منزلي، أمشي الهُوَينى بمفردي، أتأمَّل الأشياء حولي في رضًا، فالسير على الأقدام متعة وفائدة، وإذا سيارة فخمة تقف على مقربة مني، ويطل منها صديق يُشير إليَّ ويدعوني أن أركب، فأردت الاعتذار إيثارًا لرياضة المشي، فألحَّ وأصرَّ، وفتح باب السيارة ونزل ليأخذ بيدي ويُجلسني في مقعده، فلمَّا دنوت ونظرت، بهتُّ؛ ذلك أن السائق كان غادة لم تقع عيني على أجمل منها، وكان المقعد الذي دُعِيت إلى الجلوس فيه إلى جوارها، فلم أرَ من سلامة الذَّوق أن أتراجع، بل إني لم أفطن إلى نفسي إلَّا وأنا راكب، والسيارة تنهب بنا الأرض، والصديق في المقعد الخلفي يسألني عن وجهتي، وأنا لا أدري بماذا أُجيب. هنالك نوع من الجمال يُعمي البصيرة، كما يُعمي مصباحُ السيارة البصر، فلا بُدَّ من وقت تفرك فيه عينيك لترى، ولا بُدَّ من فترة تسترجع فيها فطنتك لتدرك، وعندما مرَّت الفترة ذهبت السَّكرة، كان منزلي قد اختفى شبحه وراءنا، وزال أثره، فأفقت صائحًا فيها: بيتي! بيتي!

فأوقفت السائقة الجميلة السيارة في الحال، وأرادت أن تدور بها لتعود بنا أدراجها، وإذا سيارة أخرى كانت آتية من خلف قد اعترضتنا، ووقفت، ونزل منها رجل يتفجَّر غضبًا، وأقبل نحونا مسرعًا، ورأيته قد دنا مني، وأمسك بمقبض الباب ليفتحه عنوةً،

وخُيِّل إليَّ — من شرر عينيه — أنه يُريد بي شرًّا، وهنا سمعت صديقي الجالس خلفي يلفظ صيحة: ضبطك! انطلقي بالسيارة إلى آخر سرعة!

وإذا بالغادة، وقد لمحت وجهها قد امتُقع، وأمسى — حتى في شحوبه جميلًا كالوردة البيضاء المُشرَّبة بالصُّفرة — قد اندفعت بالسيارة، فإذا هي تُسابق الريح، تاركةً الرجل وقد تنحَّى عن طريقها خشية أن يُصدم أو يُداس.

مرقت سيارتنا كالسهم في طريق الجيزة، ولكن الجميلة نظرت في مرآة السيارة العاكسة، وصاحت: إنه يتبعنا.

وضاعفت سرعتها، فنظرت خلفي فإذا سيارة الرجل منطلقة خلفنا حقيقةً بسرعة زائدة، فقلت للراكبين معي: ما الذي حصل؟

فارتبكت المرأة، وتردَّد صديقي قليلًا، ثُم قال: يظهر أننا ونحن ندور بالسيارة قد ارتكبنا مخالفة!

فصدَّقت، وسكتُّ، واجتازت السيارة الجيزة واندفعت في طريق الهرم، ونظرت الحسناء في المرآة العاكسة، وصاحت: إنه أخذ يقترب منَّا.

فصاح بها صديقي: ضاعفي السرعة! أسرعي! أسرعي! إذا لحق بنا فقد هلكنا.

فأسرعت الجميلة! ونظرتُ خلفي فإذا الرجل يسرع في أثرنا هو الآخر، فلم أتمالك، وقلت: عجبًا! ماذا يريد منا هذا الرجل؟ لو كُنَّا صادمناه على الأقل أو ألحقنا به ضررًا ظاهرًا، لكان له بعض العذر، ولكن مخالفة بسيطة يُطاردنا من أجلها هذه المطاردة، ويرغمنا على هذه السرعة الخطرة، ويُعكِّر علينا صفونا، ويُكدِّر علينا مزاجنا؟ لعنة الله على هذا السخيف!

فخُيِّل إليَّ أن صديقي يقول في نبرة مرتجفة: حقًّا إنه سخيف.

وكنت قد أغرقت في شرود وسهو، ولم أفكر إلَّا في هذه المجازفة بأرواحنا بهذا الإسراع المُهلك بغير ضرورة، وقلت في نفسي: أيبلغ بنا الجبن إلى هذا الحد، فلا يخطر في بالنا أن نُواجه الرجل ونناقشه بالحسنى، فربما اقتنع بالمعروف؟!

وصارحتهما بهذه الفكرة، فابتسما ولم يُحيرا جوابًا، وأمعنا في الصمت والقلق، كما أمعنت السيارة في ذلك السباق المُخيف، وكانت سيارة الرجل المُطارِد في تلك اللحظة قد أوشكت على اللَّحاق بنا، فصاح صديقي بالحسناء: خير حلٍّ أن تعرجي بسرعة يسارًا وتأخذي طريق العودة، وهو ما لم يُفكِّر في أننا سنفعله، وبذلك يتعذَّر عليه أن يلحق بنا.

وأدارت الجميلة عجلة القيادة فجأةً، فتحوَّلت السيارة يسارًا، وما كادت تمرق في طريق العودة حتى وجدنا سيارة الرجل المُطارِد قد عرجت هي الأخرى يسارًا، لا من الممرِّ

المُعَدِّ لذلك، بل مقتحمةً الرصيف، واعترضتنا وسدَّت علينا الطريق، وعندئذٍ بادر صديقي صارخًا بالسائقة: اقتحمي الرصيف أنتِ أيضًا خلفه، وامرقي سريعًا.

وهنا نفد صبري، ففتحت باب السيارة قائلًا: هذه تصرفات أطفال، أنزلوني وأنا أتفاهم مع هذا الرجل.

فصاحا بي، وهما يجذبان كُمِّي: تتفاهم؟ مستحيل! مستحيل! الزم مكانك، إنا سننطلق، لا بُدَّ من الهرب.

فأنقذت ذراعي منهما، ونزلت وأنا أقول لهما: إذا أردتما العبث فأنا لست في سنِّ العبث، ولا يليق بي هذا الكرُّ والفرُّ، اذهبا أنتما واتركاني أُحادث الرجل في أمر هذه المخالفة البسيطة، وأُسوِّي الموضوع معه باللُّطف واللِّين.

وكان الرجل قد نزل من سيارته، وأقبل يشتدُّ نحوي، فلمَّا رأت السائقة الجميلة وصديقي ذلك لاذا بالفرار، واخترقا بالسيارة الرصيف، والرجل يُشيِّعها ببصره حتى اختفت عن الأنظار، فاستأنف سيره نحوي إلى أن بلغني، فابتدرني قائلًا: وقعت في يدي أخيرًا يا مُجرم!

فنظرت إليه بعتاب، وقلت بتسامح وهدوء: مجرم؟ أنا لست بسائق السيارة، ولم أسُق قطُّ سيارة في حياتي، ولا أعرف كيف تسير ولا كيف تُدار!

– طبعًا هي التي كانت تسوق وتقود، وكنت أنت بجوارها تنظر في عيونها السُّود.

– آه! لا تُذكِّرني بعيونها، إني والله من بهرتي لم أدرِ ما لون عيونها! أسُودٌ هي أم رماديَّة أم عسليَّة، وإني لمندهش لرجل مُهذَّب مثلك، كله ذوق ونظر، كيف يتصرَّف هكذا مع فاتنة كهذه! هبها يا سيدي خالفت وأخطأت، ألا يحسُن بك أنتَ أن تتساهل؟

– أتساهل يا سافل! مَن تحسبني حتى أتساهل في هذه الأمور؟ ولكنِّي سأُريك أن الذي أمامك هو رجل.

وأخرج في الحال من جيبه مسدسًا صغيرًا، ما إن لمحته في يده حتى هرب دمي، ولكنِّي تجلَّدت، واعتصمت بالهدوء وتكلَّفت الابتسام، وقلت ملاطفًا: اللهم عفوك ورضاك! أتريد قتلي يا سيدي لمسألة بسيطة كهذه؟

– بسيطة! بسيطة يا وغد؟ تُسمِّي هذه المسألة بسيطة؟!

– أقصد، وأنت الصادق، أنها لا تحتاج إلى غضبك هذا كله، إنها مِمَّا يقع في كل يوم، خصوصًا من سيدة جميلة كهذه يُغتفر لها كل شيء.

– يُغتفر لها كل شيء إلَّا سوء سيرها!

– سيرها والله كان بمنتهى الحذر، لولا ظهورك أنت المفاجئ، ولعل هذا هو الذي أوقعها في الارتباك.

– طبعًا ظهوري المفاجئ لا بُدَّ أن يربككما ويوقعكما في الحرج والضيق!

– أكثر من ذلك يا سيدي، وأنت الصادق، لقد حُلت بيننا وبين المُتعة بتلك النُّزهة اللطيفة، ولو كنتَ تكرَّمت علينا وتفضَّلت فأغضيت عن الموضوع ومررت مرَّ الكرام وتركتنا نُواصل سيرنا ونُزهتنا ومُتعتنا، لكنت ظفرت منَّا بألسنة تلهج بشكرك، والدعاء لك، والثناء عليك!

– ما شاء الله! إني لم أرَ في حياتي أصفق منك وجهًا، إني أقسم أن في استطاعتي الآن أن أُريق دمك برصاصة وأنا مرتاح الضمير.

ولمعت عيناه بأشعَّة أرعبتني، فتوسَّلت إليه أن يُبعد المسدَّس عني، وجعلت أستعطفه وأقول له: مهلًا يا سيدي مهلًا هدئ أعصابك الثائرة مهما يكن من أمر، فما ذنبي في الموضوع؟ ولماذا تُحمِّلني أنا مسئوليَّة الحادث، وما أنا في الواقع غير واسطة خير نزلت كي أتفاهم معك، وأُزيل من نفسك كل أثر سيئ.

– عجبًا! وهل تصوَّرت أني أقبل أن تكون أنت واسطة خير ورسول صُلح بيني وبينها؟!

– وما المانع؟

– أنت الذي تُصلح بيني وبين شريكتك؟ وهل أرضى هذا الوضع؟ وهل هذا معقول يا ... يا بارد!

– كنت أحسبه تصرفًا سليمًا!

– هذا تصرف في منتهى الجرأة والوقاحة!

– لا حول ولا قوة إلا بالله! أعترف بأني عجزت عن إرضائك، وفقدت الأمل في فهمك أو فهم ما تريد، فاقتلني إذا شئت، ولكنِّي أرجو منك وأنا ألفظ الروح أن تفهمني على الأقل: لماذا أنا مُت؟ لو أني تسبَّبت، لا سمح الله، في خرق «فردة كوتش» لكان هذا سببًا معقولًا لقتلي، ولكن أموت يا ناس من أجل مسألة تافهة؟!

– تافهة؟ يا نذل! في أيِّ عصر نعيش حتى نرى هذا التبجُّح الغريب، والاستهانة بهذا الجرم الخطير!

– بل في أيِّ عصر نعيش يا سيدي حتى نرى نفسًا حرَّم الله قتلها تذهب في مخالفةٍ الحكم فيها لا يزيد عن ١٥ قرشًا؟

– مخالفة؟ هذه جناية!

– أؤكد لك أنها مخالفة، إني رجل أعرف القانون.

– اخرس! أنت رجل مُستهتر.

– وأنت رجل مُتشدِّد زيادة عن اللزوم.

– يا للصفاقة! ألا تُريد مني أن أتشدَّد دفاعًا عن حقوقي الشرعية!

– حقوقك يا سيدي محفوظة، ولو كان حصل لك أو حصل لها أيُّ ضرر.

– ألم يحصل ضرر؟ ألا تُريد أيضًا أن ترى الضرر الذي لحقني؟!

– لا أقصد ذلك يا سيدي، وأنا مُعترف أن حُكمي في هذا لا يُعتَمد عليه، وأنا مستعد لإجراء معاينة أو فحص بمعرفة خبير يكشف عليها.

– يكشف عليها! اخرس يا بذيء!

– أنا والله لم أعد أدري كيف أرضيك؟

– لا يُرضيني شيء سوى قتلك والشرب من دمك، وغسل عاري بهذا الدم النجس!

لماذا يا سيدي المحترم؟ ماذا صنعت في دنيايَ حتى أستحقَّ هذا؟

– هذا هو الجزاء الوحيد لذلك الأثيم الذي يعتدي على أعراض الأُسَر؟

– أعراض الأُسَر؟ وما دخل أعراض الأُسَر فيما نحن فيه؟

– وبماذا تصف علاقتك الشائنة بزوجتي؟

– زوجتك؟ وهل حصل لي الشرف بمعرفة زوجتك؟!

ألا تعرفها؟

– ولم أرَها في حياتي، وأقسم لك ...

– ومَن عشيقتك إذَن؟

– عشيقتي؟ لا يا سيدي الفاضل، لا تجرح شعوري، أنا رجل مستقيم لا صلة لي بامرأة، ولم أعرف امرأة.

– والتي كانت إلى جوارك في السيارة، أهي امرأة أم؟

– آه، لك حق، ولكن القصَّة على وجهها الصحيح هي أني كنت أسير في طريقي إلى منزلي، كما يحدث لكل إنسان، وإذا سيارة تقف على مقربة مني، فأصعد، وإذا بجواري امرأة.

– كما يحدث في كل «أتوبيس»!

– بالضبط.

– وهل تعرف هذه المرأة؟

– أبدًا.

– والتقطتك هكذا من الطريق بدون سابق معرفة؟

– هذا والله الذي حصل.

– ذلك شيء مُشرِّف جدًّا لهذه المرأة؛ أن تُصبح هكذا كالسيارة العامة، تلمُّ من الشوارع مَن تعرف ومَن لا تعرف.

– لا تظلمها يا سيدي، الموضوع له أصل.

وهممت أن أقصَّ عليه حقيقة ما حدث بالصراحة والصدق والتفصيل، ولكن توقَّفت في الحال، وأدركت أن ذلك مستحيل؛ إذ لا بُدَّ دون ذلك من أن أذكر له وجود صديقي الذي دعاني، والزوج من غير شك لا يلمحه؛ لأن هذا الصديق كان في المقعد الخلفيِّ من السيارة المغلقة، ولم يكن التفات الزوج مُوجَّهًا إلَّا للجالس بجوار زوجته في مقعد القيادة، وهو أنا ولا فخر، فإفشاء أمر صديقي المجهول، لن يُغيِّر من الموقف كثيرًا، فالزوجة مُتَّهمة في الحالين، ومن يُدريني أن الزوج سيُصدِّقني إذا حاولت نقل عبء الجريمة عن كاهلي إلى كاهل آخر لم يرَه، وألَّا أخرج من المحاولة إلَّا بخسة النذالة والجبن والاغتياب والنميمة؟ ثُم إني قد «لبَّخت» في أوَّل حديثي، ونوَّهت بعيون «الزوجة» وفتنتها وموقع سحرها من نفسي، ومُتعة النُّزهة معها التي عكَّر صفوها الزوج بظهوره، أنا إذَن متلبِّس بالتُّهمة لآذاني بأقوالي وأفعالي، ولا توجد قوة ولا حُجَّة في مقدورها تبرئتي، ولا فائدة في إنكار ولا جدوى في دفاع، فلأُسلِّم الأمر لله، وليعتقد الرجل ما يعتقد، وليكن ما يكون.

ورأى الزوج صمتي وإطراقي، فاستحثَّني قائلًا: تكلَّم! ماذا في استطاعتك أن تقول؟ بماذا تُعلِّل وجودك إلى جوار زوجتي في السيارة؟ وبماذا تُبرِّر هروبكما مني، وأنا أتبعكما من مصر إلى الجيزة، إلى الهرم؟

فلم أجد في رأسي ردًّا نافعًا، فلا الحقيقة تصلح أن تُقال، ولا الصِّدق بمُنجٍ في مثل هذه الحال، فاكتفيت بأن قُلت: عُقدة العُقَد يا سيدي هي في إيجاد هذا التعليل المُقنع.

– اعترف إذَن، وما دمنا وصلنا إلى هذه النتيجة، فلا بُدَّ من تصفية الموقف الآن بكل عقل وحكمة وهدوء، كما يليق برجُلَين مهذَّبَين، أجبني أوَّلًا بكل صراحة، أنت تُحبها طبعًا!

فلم أرَ داعيًا للاهتمام بالجواب الصحيح، فالمسألة بلغت حدًّا أصبح فيه الكذب مساويًا للصدق، وربما كانت الأكاذيب في هذا الظرف أقرب إلى التَّصديق من الحقيقة، وما دُمنا

لم نعد نستطيع قول الحقيقة فلنُجرِّب الكذب، فقد يُنجينا من هذا الحرج الذي لا مخرج منه، فقلت له: تسألني هل أحبها؟ أحبها بجنون، ولا أنام الليالي.

– وهي تحبك طبعًا!

– حب العبادة، ولا تنام الليل.

فكظم غيظه، وتكلَّف الهدوء، وقال: ومنذ متى يعرف أحدكما الآخر؟

– منذ نصف ساعة.

فحملق في وجهي، وقال: ما هذا الخلط؟ أهذا معقول؟ أجبني بصراحة قلت لك!

– إني أُجيبك بما أرى، فاستخرج أنت الصحيح من الزائف.

– إجابتك الأخيرة ظاهرة الكذب، فقل الحقيقة من فضلك.

– تلك هي الكذبة الوحيدة في كل ما أجبت به، اغفرها لي!

– مِمَّا لا شكَّ فيه أن معرفتكما لا بُدَّ أن تكون قديمة.

– فلأقُل الصِّدق إذَن: حقًّا إننا تقابلنا، وتعرَّفنا منذ عام، وكانت العلاقات بيننا دائمًا طول هذه المُدَّة على ما يُرام.

– عظيم جدًّا! اسمع الآن ما استقرَّ عليه عزمي، إني سأطلقها، وعليك أنت أن تتزوجها، ولا تأمل أن يكون للمسألة حلٌّ آخر غير هذا.

فبلعت ريقي، وكتمت ما بي، وتكلَّفت الابتسام، وأظهرت الرضا؛ ذلك أن المهم فيما أنا فيه هو الخروج من اللحظة الحاضرة، والخلاص من المأزق الحالي، وإلى أن أعود إلى داري قد يأتي الله بالفرج، وإلى أن أمثُل بين يدَي المأذون لعقد ذلك الزواج، أكون قد قابلت صديقي وصفعته وأقنعته بأن يحُلَّ محلِّي وأن يُخلي سبيلي.

واتفقنا على ذلك أنا والزوج، وتصافحنا وأركبني سيارته، وأوصلني إلى بيتي الذي لم يُقدَّر لي أن أصل إليه في سيارة زوجته، وانتظرت، وها أنا ذا أنتظر إلى اليوم، فلا الزوج قد ظهر، ولا الزوجة، ولا الصديق، ولا طلاق حصل، ولا زواج طلبوني إليه، أين اختفى عنِّي أبطال تلك القصة؟ وماذا تمَّ في أمرهم؟ وما علاقة بعضهم ببعض الآن؟ أسرار لا أدري عنها شيئًا، ولا أريد أن أدري، كل ما أعرف هو أني صرت أجفل وأرتعد من كل سيارة تقف بقربي وتقودها امرأة.

في نخب «العصابة»!

اهتزَّت الدنيا لخبرٍ أذاعه البرق في كلِّ مكان: علماء الذَّرة قد اختفوا فجأةً من أمريكا، ولا يدري أحد مقرَّهم ولا مصيرهم.

وعلَّقت الصحف على ذلك الاختفاء الغريب بقولها: إنه، ولا ريب، اختطاف قامت به جماعة من الجواسيس لحساب بعض الدول، ولكن الحقيقة التي وقعت لا يُمكن أن تخطر على بال صحافة ولا خيال صحفيين! فقد حدث الأمر على هذا الوضع؛ رجل مستقر في بهوه الفاخر قرب المدفأة، قرأ في جرائد المساء هذا الخبر: «صرَّح رئيس اتحاد العلماء الذريين الأمريكي بأن الأبحاث الجديدة في شئون الذرَّة ستُتيح بعد عام صُنع قُنبلة تفوق في قوة التدمير القنبلتين اللتين أُلقيتا على هيروشيما وناجازاكي بمقدار ألف مرَّة.»

فألقى الرجل بالصحيفة، ونهض وقد دبَّر في نفسه أمرًا؛ هذا الرجل لم يكن سوى «آل كابوني» رئيس العصابة الخطير وصاحب الملايين الشهير!

كان قد اعتزل العمل الحرام، وقد حذَّره الأطباء من داء القلب، وشعر بدنو الأجل، ولكن موهبة التنظيم والتدبير لم تزل منها في عقله بقيَّة، ونفوذه على مَهَرة القتلة والمُهرِّبين وحُذَّاق اللصوص والخطَّافين لم يزل له قوة، فبذل من المال والحيلة ما لا يقف في سبيلهما شيء، حتى ظفر بخطف اتحاد العلماء الذرِّيين الأمريكيين برئيسهم، ووضعهم في قصره الفخم في «فلوريدا»، ودعاهم إلى مائدته وقدَّم إليهم أطيب الطعام وأفخم الشراب، ثُم قام في آخر العشاء يرفع كأسه قائلًا: في نخب «العصابة»! عفوًا! أقصد «الاتحاد»!

ونظر إليه رئيس اتحاد العلماء قلقًا، وهو لا يدري أكان هذا الخطأ منه مقصودًا! أتُرى هذا الرجل يسخر منهم، أم يحتفي بهم؟!

ولم يُمهلهم «آل كابوني»، فقد مضى يقول: لقد دعوتكم إلى قصري لأُكرِّمكم، ومَن أحقُّ منكم اليوم بالتكريم مني؟! أرجو قبل كل شيء أن تغفروا الطريقة التي أحضرتكم بها، لقد خشيت أن أرسل إليكم بطاقات دعوة، وأكتفي بها، فلا تعنوا بتشريفي ترفُّعًا، أو استغرابًا، أو رهبةً، أو أنفة، فأنتم ولا شكَّ تعتقدون أنْ لا صلة تربط مثلي بمثلكم، ولا تشابه بين مهنتي ومهنتكم، ولا تجانس بين مشاعري ومشاعركم، ربما كان هذا صحيحًا لأوَّل وهلة، وإني لست من الوقاحة حتى أزعم لنفسي أن أقف بين جماعة من الأبطال استطاعوا في طرفة عين أن يقتلوا مئات الآلاف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، ما من أحد يُكبر عملكم مثل ما أُكبره، وما من أحد يُقدِّر جهدكم مثل ما أُقدِّره، كلما تذكَّرت أن كل مجدي قائم على عدد من الرجال — الرجال فقط — قتلتهم في شيكاغو أنا وأعواني، عدد لا يزيد على خمسمائة رجل، وأنا كل شهرتي قائمة على تلك المجزرة التي أبَدت فيها كل خصومي عام ١٩٢٩م في جراج «يوم سانت فالنتين»! لقد كان أعواني كثيرين، أكثر منكم عددًا، ولكنَّنا لم نستطع أن نفعل أكثر من ذلك، أمَّا أنتم فقد استطعتم أن تُبيدوا خمسين ألف نسمة دفعةً واحدة، اعذرونا، لقد كانت وسائلنا أوليَّة محدودة، كل ما في أيدينا كانت المسدَّسات والمترليوزات، وهل يخطر في بالنا أن المستقبل سيكشف عن رجال مثلكم، في أيديهم هذه القدرة، وفي قلوبهم هذه الجرأة؟ إني أُخاطبكم وفي نفسي شعور من الخجل والمذلَّة والضآلة؛ فكل عملنا بالقياس إليكم عبث صِبية ولعب صغار، وقد منحوني من أجله لقب «عدو الشعب رقم واحد»، ولست أدري، ما هو اللقب الذي يليق برئيس هذه الجماعة! أعني الاتحاد، أحمد الله أن زماننا قد فات، وبطولتنا المزعومة قد طُويت في بطون الصحف القديمة، أمَّا اليوم فهو يومكم، وهذا الزمان هو زمانكم، ولكل زمن رجاله! فاسمحوا لي بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن جماعتي أن أُحيِّي جماعتكم، وأن أرفع كأسي في نخب مجدكم، ليحيا الرجال الجدد! لتحيا العصابة الجديدة! أعني الاتحاد الجديد.

وشرب «آل كابوني» قدحه في جرعة واحدة، وجلس بأدب وتواضع، وقد أرخى أهدابه ونظر إلى الأرض؛ فلم يُبصر رءوس ضيوفه المطرقة، ولا عرقهم المُتفصِّد من الجِباه، ولا خجلهم المتصبِّب قانيًا من الوجوه.

وخيَّم سكون قطعه آخرَ الأمر رئيسُ الاتحاد بنهوضه، فنهض معه كل الأعضاء، وانتهت الوليمة صامتةً كأنها جنازة.

وانصرف العلماء إلى منازلهم واجمين، لا يجرؤ أحدهم على النظر إلى الآخر، واقترح الرئيس في النهاية أن يبقى أمر هذه الوليمة سرًّا.

ولم ينم «آل كابوني» في تلك الليلة، فقد كان تأثُّره شديدًا، لقد أيقن أن آخرته قد دنت، وأن صفحة حياته قد طُويت، وأنه قد ختمها كما ينبغي لها من الرَّوعة، وأنه أسلم الصولجان، ولفظ في خلفائه خُطبة الوداع، على أحسن ما ينبغي وأجمل ما يشتهي، فحُقَّ له الرُّقاد الأخير!

وأصابته آخرَ الليل نوبةٌ قلبيَّة، وأسلم الروح.

وظهرت الصُّحف في اليوم التالي، وكأنه القَدَر هو الآخر أراد أن يتكلَّم على طريقته، أو يمزح أو يجدَّ، لا أحد يدري مراميه!

كل ما حدث هو أن صورة «آل كابوني» نُشرت مصادفةً بجوار صورة «رئيس الاتحاد»!

الأوَّل بمناسبة وفاته.

والثاني بمناسبة عودته، بعد اختفائه هو وأعوانه من «مهمَّة سريَّة فنيَّة»!

أسعد زوجين!

جلس يُصغي بانتباه إلى جهاز الراديو وقد تصاعد منه صوتٌ ناعمٌ بديع: «يوضَع اللَّحم في البرام، ثُم يُغطَّى بالبطاطس، وتُفرى بصلة فريًا ناعمًا جدًّا، وتُحمَّر في السَّمن حتى يحمرَّ لونها، فيُضاف الدقيق ويُقلَّب حتى يُصبح ذا لون بني فاتح، ثُم تُزاح الصلصة من على النار، وتُضاف مع البقدونس والملح والفلفل والبهار ...»

إلى آخر ما جاء في برنامج التدبير المنزلي ذلك اليوم، وكان ذلك المستمع الكريم يسمع بقلب يخفق هيامًا، وفؤاد يطير شوقًا، ولعاب يسيل حنانًا، وبرح به الغرام، والأذن تعشق قبل العين أحيانًا، فلم يُطق صبرًا، وقام إلى أهله يعلن إليهم: لا بُدَّ لي من الزواج بهذه المرأة.

فسألوه: هل تعرفها؟

– لا أعرف إلَّا إذاعتها اللذيذة في الراديو، إنها تهزُّ قلبي.

وكان صاحبنا هذا من أولئك الذين يخلطون بين القلب والمعدة، فإذا سأله طبيب يومًا: أين معدتك؟ أشار إلى قلبه، وإذا سأله: أين قلبك؟ أشار إلى معدته. وكان لا بُدَّ للمرأة التي تريد استلاب قلبه من أن تستولي على المعدة أوَّلًا، فإذا ملكتها ملكت كل شيء.

وتمَّت مراسم القِران، وجاءت ليلة الزفاف، وأحيت الحفلةَ إحدى المطربات جعلت تُغنِّي طول الليل: «إحنا الاتنين، والعين في العين، أهنأ قلبين، وأسعد عريسين.» والعريس يتملَّل في مقعده ضجرًا من هذا الغناء، ويود الكلام في موضوع أعزَّ عليه وألذَّ من هذا الهراء، وضاق صدره آخرَ الأمر ولم يحتمل، فانحنى على عروسه، وقال لها باهتمام: حدثيني بعد أن وضعتِ اللَّحم في البرام، لقد قلتِ إنه يجب أن تُفرى البصلة فريًا ناعمًا جدًّا، وتُحمَّر في السَّمن، ما قولك لو أضفنا مع البصل شيئًا من الثُّوم والكزبرة والكمُّون؟

فنظرت إليه العروس طويلًا، ولم تجب.

ومرَّت الأيام الأولى من أيام الزوجية، والعريس يتقلب على الشوق ويتقلَّى منتظرًا اليوم الذي تدخل فيه زوجته المطبخ، وتلبس فوطتها، وتُشمِّر عن ساعديها، تطبخ له تلك الأصناف الشهيَّة التي طالما شنَّفت أسماعه بوصفها اللذيذ في الراديو.

ودخلت الزوجة المطبخ أخيرًا، وزوجها يُباركها ويسأل الله أن يحميها، وعاد من عمله في الظُّهر وهو يتلمَّظ ويقول: «صلوات الله على تلك التي ستسعدني بالأكلة المثاليَّة والطبخة النموذجيَّة.»

وانتظر ساعةً، ثُم ساعةً، ثُم كاد العصر يؤذِّن، فخرجت الزوجة النشيطة من المطبخ والعرق والهباب يسيلان معًا من وجهها وهي ملبوخة من رأسها إلى قدمها، وقالت له: لا مؤاخذة! أنا استسهلت خوفًا من التأخير، عملت لك طبق بيض مقلي.

فأخفى الرجل حسرته وكتم غضبه، ومدَّ يده صامتًا إلى طبق البيض المقليِّ، كما قالت، فوجد سمنه قد تبخَّر، وبياضه قد احترق، وصفاره قد تحجَّر.

ودقَّت الساعة الرابعة، فبادرت الزوجة إلى ثياب الخروج فارتدتها، وانطلقت مُسرعةً كأنها على موعدٍ هام.

وما وافت الخامسة والربع، حتى سمع الزوج المسكين صوت امرأته الحنون يتصاعد من الراديو، ويُذيع على المستمعين المصدِّقين: «يوضَع اللَّحم في البرام، ثُم يُغطَّى بالبطاطس، وتُفرى بصلة فريًا ناعمًا جدًّا، وتُحمَّر في السَّمن ... إلخ.» وأطرق الزوج مليًّا، ولم يعد يدري ماذا يفعل.

هل يضحك؟! هل يبكي؟!

اعترف القاتل!

كان موقف ذلك المتَّهم عجبًا أمام قُضاته! ذلك الشاب النحيل الجسم، الشاحب الوجه، الهادئ الطبع، الباسم الثغر، أهو قاتل في قفص اتِّهام؟ أم شاعر في خميلة ريحان؟!

كان يُشرف من مكانه على قاعة الجلسة، كأنه مُؤلِّف يُشرف من مقصورته على رواية من تأليفه، كل شيء يجري أمامه في المجرى الذي تخيَّله ودبَّره، وكل شيء سيحدث طبقًا لما ارتضاه وتوقَّعه، لم تكن في نظراته حيرة المُتطلِّع إلى الغيب، ولم يكن في قلبه قلق المُترقِّب لصوت القدر، كأنما يعرف أنه هو الذي نسج غيبه، ووضع قدره.

كانت المحكمة غاصَّة بالحضور، وسياج الشرطة يدفع عن الأبواب أمواج الجماهير، فتلك جريمة اهتمَّت لها البلاد واهتزَّت لها الدوائر السياسية.

وقف النائب العام يطلب رأس المتهم قائلًا: «مهمَّتي هيِّنة يا حضرات القُضاة! فالمتَّهم الذي بين أيديكم مُعترف بجريمته، وقد دبَّرها بدقة ونفَّذها بإحكام، فقد قتل عمدًا مع سبق الإصرار والترصُّد المجني عليه، ذلك القطب السياسي المشهور، بأن أطلق عليه رصاص مسدَّسه وهو في الطائرة بين الإسكندرية والقاهرة، فأصابه في صدره الإصابة المُوضَّحة في تقرير الطبيب الشرعي، والمُؤدِّية إلى وفاته، وتتلخَّص وقائع الجريمة كما شهد بها ضابط اللاسلكي في الطائرة، في أنه في ذلك اليوم لم يكن بها غير راكبين؛ هما المجني عليه والمتهم، وقد لاحظ ضابط اللاسلكي كما لاحظ قائد الطائرة بعض آثار الاضطراب على المتَّهم وهو يهُمُّ بركوبها، ولكنَّهما لم يُعلِّقا على هذه الملاحظة اهتمامًا، إلى أن حلَّقت الطائرة وطارت حتى كادت تقترب من القاهرة، وإذا بضابط اللاسلكي يحسُّ حركة خلفه، وكان الباب الموصل بين مكان الركاب ومكان القيادة مفتوحًا، فالتفت فأبصر المجني عليه يخرج من مقعده والجاني أمامه والمسدَّس في يده، فهُرع إليه وانتزع منه آلة الجريمة، ووضعه تحت

الحفظ، وقد سُئل الجاني فاعترف بالقتل العمد، وقد ظهر من التحقيق أن الجاني — وهو مُدرِّس في إحدى المدارس الحرَّة بالإسكندرية — كان كثير التردُّد على القاهرة، وأنه — كما شهد ناظر مدرسته — في حالة ماليَّة مرتبكة، وأنه كثير العزلة، مُحاط بالغموض، وشهد زملاؤه أنه يُكثر من الكتابة خُفيةً في أوقات فراغه إلى جهة مجهولة، وطالما رأوا على وجهه علامات الاهتمام والتفكير إلى حد الانفعال، وهو يتلقَّى أو يقرأ خطابات كثيرة تردُّ إليه لا يعلمون مصدرها، وكانوا يشعرون كأن المتَّهم غريب بينهم، فهو قليل الكلام معهم، بعيد عن مجالس مرحهم ولهوهم، لم يروه مرةً ضاحكًا ولا عابثًا، كان دائم التفكير في أمر لا يدركون كُنهه، وكان يبدو عليه أنه يتحاشاهم ويتجنَّب عشرتهم، وفي يوم الحادث شهد زملاؤه المدرسون أنه تلقَّى برقيَّة، فتغيَّر وجهه بعد تلاوتها، وسأل عن الساعة، وقال وهو مُسرع مضطرب إنه ذاهب إلى المطار ليركب الطائرة إلى القاهرة، وقد أبصروه في تلك اللحظة يُخرج مسدَّسًا من ثيابه، فحصه ثُم ردَّه إلى جيبه. كل هذه الوقائع أثبتها التحقيق وأقرها المتَّهم، نعم، المتَّهم معترف بما اقترفت يداه، ولكن السؤال الحائر على كل الشِّفاه: هل له شركاء؟ ولم يستطع التحقيق، للأسف، أن ينتزع اسمًا واحدًا من فم هذا المجرم، كان في مراحل التحقيق على هذا الهدوء العجيب الذي ترون، يُنكر أن لأحد غيره يدًا فيما وقع، لم يستطع الاستجواب الدقيق، ولا القرينة المحرجة، ولا الحيلة البارعة، ولا الحُجَّة القارعة، أن تستثيره وتستحثَّه وتُخرجه من هذا الثبات وهذه الابتسامة! في حياتي القضائيَّة الطويلة لم أُصادف مجرمًا بهذه القوة ولا بهذا الدهاء، ما من شيء استطاع أن يهُزَّ هذا الشابَّ الباسم لينهار ويُفرِغ ما في جوفه، جبل من الجليد مُحاط بالضباب، بل حصن من الهدوء الصوفيِّ يحمي، ولا ريب، خلفه جماعة من الأعوان وجمعيات من السفَّاكين والإرهابيين، إن النهج الذي سار عليه القاتل قد أوقع المُحقِّقين في حيرة، إنه لم يشأ أن يخوض حتى في الغرض السياسيِّ الذي من أجله ارتكب الجريمة، كان دائمًا كما تبصرونه الآن بعيدًا عن كل زهو أو فخر، لا تخدعه ألفاظ البطولة، ولا يُحاول أن يلبس عمله أردية برَّاقة من عبارات الوطنية أو القومية، ولا يُريد أن يُوجِد لفعلته تبريرًا أو تفسيرًا!»

كل ذلك من فرط حرصه، حتى لا يجعل تحت قدميه مزالق، أو يحفر بلسانه سراديب تنساب من بين أقواله إلى حصن أسراره، كانت كلماته الوحيدة: «لقد قتلت مُتعمِّدًا، واستحقَّ رأسي المشنقة، فعجِّلوا بها، ولا تُضيِّعوا وقتي ووقتكم فيما لا طائل وراءه!»

هذا مجرم أدَّى مهمَّته، ويريد أن يُمحى سريعًا ويُباد، كما تُباد وثيقة تحوي أمرًا يُراد إخفاؤه عن العيون! إن إثم هذا الرجل لا ينتهي بتنفيذ حكم الإعدام فيه، إنه يموت

ليُمكِّن لجرائم الاغتيال من أن تستمر بعده، إذا فتحتم جمجمة هذا الإنسان وجدتم سلسلة من الجرائم مقرونةً بأسماء الضحايا الذين يعلم هو متى تدنو ساعتهم، ويعرف هو اليد التي ستبطش بهم!

يا حضرات القضاة، أمامكم رجل خطِر! لا يغرنَّكم هذا القناع الحريريُّ من الوداعة والدماثة، إنه يُخفي تحته نفسًا خبيثة لمجرم من أشدِّ المجرمين فتكًا، وسأشرح لكم ما امتلأت به ملفاتي وصفحاتي من تفصيلات عن نفسيَّة هذا المجرم ودوافعه السياسيَّة!

وسكت النائب العام عن المرافعة لحظةً، ليتناول جرعة ماء من كوب فوق منصَّته بحركة متَّسقة فيها جلال وثقة، وجعل المتَّهم يرمقه بنظرات امتزجت فيها الرقَّة بالسخرية، ومضى النائب العام في الكلام طول ذلك اليوم، والكل مُصغٍ إليه بآذان مرهفة وعيون مشدوهة، إلَّا المتَّهم؛ فقد كان النُعاس قد دهمه منذ ساعات، فنام في مقعده حتى انتهاء الجلسة، فأيقظه الحُرَّاس ليقودوه إلى سجنه، ثُم عادوا به في اليوم التالي، ليُصغي إلى بقية كلام النائب العام، فمرافعته لم تنته بعد، ولا يدري أحد متى تنتهي.

طفق المتَّهم يرقب يد النائب تطوي من ملفاته الصفحة بعد الصفحة، وهو يتمنَّى أن يُطوى مع كلٍّ منها يومٌ من أيامه، فقد بدأ الضِّيق يجثم على صدره، والضجر يأكل من صبره أكثر مِمَّا ينبغي، ما شأنه بكل هذا الذي يسمع؟ إنه لم يعد من سُكَّان هذه الأرض، إنه في طريقه إلى العالم الآخر، مثله مثل راكب قطار قطع صلته ببلده ويمَّم شطر بلد بعيد، فإذا أُناس يستوقفونه ليُسمِعوه كلامًا طويلًا في أشياء لا تُهمُّه ولا تعنيه، ولن تقف البليَّة عند حدِّ هذا النائب، فها هو ذا محاميه عاكف هو الآخر على ملفات أضخم من ملفات الاتِّهام، وسيطلب هو الآخر أن يستغرق دفاعه الأيام، وهو لم يوكِّل عنه محاميًا، ولم يُرِد في قضيته دفاعًا، ولكنَّها المحكمة ندبت له هذا المحامي؛ لأن إجراءات المحاكمة تقتضي أن يكون له مَن يُدافع عنه، رضي أو كرِه، إنها «العدالة».

هكذا أنفق المتَّهم الوقت بين إغفاء ويقظة كالإغفاء حتى انتبه في فترة صمت لمح فيها النائب قد سكت ليرشف جرعة من الكوب ويمسح بمنديله العرق المتفصِّد من الجبين، فلم يتمالك ونهض يُخاطب هيئة المحكمة برفق وأدب، وسخرية، واستعطاف، استطاع أن يخلطها كلها ويضعها في نبرة أرغمت الجميع على الإصغاء: «يا حضرات القُضاة، ما قصدت أن أُقاطع مرافعة النائب العام، فأنا من أشدِّ المُعجَبين به، المُقدِّرين له، المُصغِين بانتباه ومُتعة إلى بلاغته، وإني لُمدرك أن الظرف يستوجب منه هذا الإسهاب؛ فالمجني عليه شخصيَّة كبيرة، والجمهور مهتمٌّ بالقضية، والمجتمع يتحدَّث في بواعثها ومراميها، فلا بُدَّ

أن يقف النائب العام بشخصه المحترم يترافع يومًا على الأقل أو يومين بمُبرِّر أو غير مُبرِّر، وأن يُجهِد نفسه حتى يجفَّ حلقه ويسيل عرقه، ليكون جديرًا بثناء الناس في المجالس على همَّته البالغة ومرافعته الرائعة، وإني لُمدرك أيضًا أن تُفسح المحكمة صدرها، وأن تطيل إنصاتها، وأن تمدَّ في الحبال، وأن تُعنى بكل ما يُقال؛ لتظفر بمدح الناس لعدالتها ونزاهتها، بل إني لأفهم حتى هذا المحامي المنتدب للدفاع عني، وهو غارق الآن في ورقه لأذنيه كما ترون يُهيِّئ كلامًا طويلًا لن يُقدِّم عندكم ولن يُؤخِّر، ولن يُبدِّل من مصيري ولن يُغيِّر، ولكنَّه يأمُل من ورائه نجاحًا عند الناس ومجدًا، أنتم جميعًا خُدَّام «العدالة»، ما في ذلك ريب عندي، ولستم موضع لوم إذا جعلتم «مولاتكم» على رأس موكب فخم يتهادى، وسرتم في ركابها صاخبين مُختالين بين أنظار الحشد، متمهِّلين في كل خطوة أو متوقِّفين عند هتاف الجموع، كل رجائي منكم أن تُسرِعوا بالموكب قليلًا، ولا بأس عندي بعد ذلك أن تبنوا لأنفسكم صيتًا على أنفاس رجل يموت!»

وجلس بهدوء كما نهض، وخيَّم صمت بارد على القاعة قطعه رئيس المحكمة أخيرًا بالتفاتة منه إلى النائب العام يدعوه إلى استئناف مرافعته، دون أن يجرؤ أحد على إبداء تعليق.

واستأنف النائب اتِّهامه حتى أتمَّه، وختمه بطلب الحكم على المتَّهم بالإعدام، طبقًا لنصوص القانون.

واتخذ مكانه، وقال رئيس المحكمة: الدفاع.

فوقف المحامي وخلع منظاره ووضعه فوق أوراقه، وقال: «يا حضرات القُضاة! إذا كانت مهمَّة النائب العام هيِّنة كما قال، فإن مهمَّتي أنا عسيرة، لا لأن هدفي إنقاذ رأس قاتل مُعترِف بالجُرم، بل لأن هذا المتَّهم — لأوَّل مرَّة على ما أعتقد في تاريخ الدفاع — يقف من محاميه موقف العدو، نعم، هذا المتَّهم هو وحده عدوِّي في القضية، وهو وحده الذي أخشاه ويخشاني، ويروغ مني وأروغ منه، ويصمت عني وأصمت عنه، لقد شكا النائب العام من فم المتَّهم المغلق وقد اعترف له، فمَن بالشكوى أحقُّ وأولى؟ وأنا لم أظفر من هذا الفم بغير قوله ساخرًا: «إذا كان لا بُدَّ لك من واجب تُؤدِّيه في المحكمة، فاقرأ على روحي الفاتحة بصوت مرتفع!»

هذا متَّهم يريد أن يموت، فكان من الطبيعيِّ أن يتَّخذ من النائب العام صديقًا، ومن المحامي خصمًا، ولست أدري ما الذي جعلني أُصرُّ على منازلته، وأمضي خُفيةً عنه أبحث، وأُنقِّب حتى أهتدي إلى أشياء ستُثير حنقه عليَّ وغيظه مني! ربما كان الباعث لي هو طلب

المجد الذي تحدَّث عنه، وتلك الرغبة في الصيت عند الجمهور، فليكن، لا أُحاول الزعم بأن رأس المتَّهم يُهمُّني شخصيًّا، ولكن إنقاذه سليمًا على الرغم منه مسألة تعنيني.

يا حضرات القضاة، لن تسمعوا مني دفاعًا عن المتَّهم، ولكن ستسمعون قصَّة، إليكم الوقائع مجرَّدة، كما تتبَّعتها، بلا تعليق ولا تنميق.

من سنوات قليلة خلت كان المتَّهم طالبًا في كليَّة الآداب، وعارِفوه في ذلك الحين يُصوِّرونه لنا في هيئة شابٍّ مُجدٍّ، دمث الأخلاق، يُؤثر العزلة ويميل إلى الشِّعر، ولم يكن صاخبًا ولا عابثًا ولا مرحًا، فسلخ أعوامه الأولى دون أن يثير التفات أحد، حتى كانت السنة الثالثة، بدأ قليل من إخوانه يشعر بنوع من الزمالة تتوثَّق بينه وبين طالبة معه في عين الفصل، واستمرت هذه الصلة على نحو واضح في السنة النهائية، على الرغم من جهود الفتى والفتاة في إخفائها، لقد كانا من طبيعة واحدة متحفِّظة مغلقة، ولكن الرِّباط الداخلي بينهما بلغ من القوة والحرارة حدَّ الإشعاع، كان مجرَّد وجودهما معًا يُشعُّ معنًى من معاني الإخلاص والتفاني، يُثير في الملاحظ لهما رجفة ودهشة، ولقد ظهر فيما بعد أن حُبَّهما الصامت بدأت جذوره في مطلع السنة الأولى يوم تلاقيا في الدراسة أوَّل مرَّة، ولكنَّه قطع أكثر من عامين ينمو في الخفاء حتى أينعت زهوره، وفُضحت فيهما إرادة الكتمان، وكان بينهما عهد وهدف أن ينجحا ويفوزا معًا بإجازة الآداب، فيخطبها الفتى إلى أهلها، حتى يجد عملًا يكفل الرزق فيتزوَّجها، واقترب موعد الامتحان النهائي، فكدَّ الفتى وكدَّت الفتاة، وبلغ بهما الكدُّ والجهد مبلغًا أنساهما الجسد وقوة احتماله، لقد كان الحبُّ يُلهب بسَوطه هذين الجوادين؛ ليركضا إلى الغاية! وبلغ الجوادان الهدف الأوَّل واجتازا الامتحان، ولكن أحد الجوادين سقط، سقط مريضًا بذات الرئة، كانت هي الفتاة.

ومن هنا تبدأ المأساة، فقد ربط المرض بينهما بحبال ليست من صنع البشر.

وقد أسرع فخطبها إلى أهلها، ولكن كفاحه في سبيل شفائها أمر يُحيِّر العقول.

كانت أُسرتها رقيقة الحال، وكذلك أُسرته، فصنع المستحيل حتى عثر على وظيفة مُدرِّس في تلك المدرسة الحرَّة في الإسكندرية، وجاهد جهاد الأبطال حتى تمكَّن من إدخال خطيبته مصحَّة «حلوان»، وأوصى الأطباء والممرضين ألَّا يدَّخروا وسعًا في العناية بالمريضة العزيزة، فهو على استعداد أن يدفع النفقات، ولو من دمه، وبذل دمه فعلًا وعقله وقوته في إعطاء دروس خصوصيَّة فوق عمله المُرهِق بالمدرسة، حتى يجمع ما يدفع به ثمن التمريض والعلاج، وكان لا بُدَّ له أن يراها في كل أسبوع مرَّة، ليُشجِّعها ويُعينها على احتمال أعباء المرض، فكثرت أسفاره إلى القاهرة، ولكن موارده على الرغم من جهوده شحيحة، فلجأ

إلى الاقتراض من إدارة المدرسة، ثُم من زملائه المُدرِّسين، ثُم من المُرابين. لقد صدق النائب العام وهو يُورد شهادة ناظر المدرسة بما وقع فيه المتَّهم من ارتباك ماليٍّ. لو أن الروح التي في الجسد تُرهن في السُّوق أو تُباع، لما تردَّد هذا الشابُّ في رهن روحه أو بيعها لينقذ بثمنها حياة من أحَب، استمعوا إلى خطاب من خطاباته إليها: «لو استطعت أن أشتري كل نسمة تتنفَّسينها بسنوات من عمري! ما أعجز الطبَّ يا عزيزتي! لماذا لا تتقاسمينني رئتي؟ لو كان في مقدوري أن أتنفَّس لكِ! تجلَّدي أيَّتُها العزيزة من أجلي، فالهواء الذي يُحييني هو الذي يحمل رائحة وجودك، يجب أن تعيشي لأعيش!»

وكانت هي بالطبع تُجيبه، ولكنَّني لم أعثر على خطاباتها إليه، لأنه يُخفيها عليَّ كما ذكرت، فكل ما عندي خطاباته هو إليها، وقد أمكنني الحصول عليها، استمعوا أيضًا إلى هذا الخطاب منه ردًّا على رسالة منها: «تُعنِّفينني على فكرة اللَّحاق بكِ ساعة تتركين هذا العالم الأرضي؟ لكأنك تُعنِّفين رجلًا مات مختنقًا إذا فقد هواءه! فيمَ المقام على الأرض بعدك؟ وكيف أستطيع؟ ثقي يا عزيزتي أن السماء قد ربطت روحك بروحي، وأنكِ لحظةَ تصعدين أصعد!».

وتجري الرسائل هذا المجرى، وفي ملفِّي منها رزمة ضخمة، فقد كان — كما ذكر الشهود — يُكثِر الكتابة في أوقات فراغه، ويلمحون على وجهه علامات الاهتمام وأمارات الانفعال، لقد كان يكتب إليها خطابًا كل يوم.

وساءت حالها أخيرًا، ودنا منها الموت، وكان هو في عمله بالإسكندرية، فلمَّا دخلت في الاحتضار وردَّدت اسمه على شفتيها بعث أهلُها إليه ببرقيَّة يسألونه الإسراع بالحضور، فهي في النفس الأخير.

وصلت إليه البرقيَّة وهو خارج من أحد فصول الدراسة، فقرأها وامتقع لونه، وخرس لسانه ومضى إلى حجرة المدرسين، فطرح كتابه ودفاتره، واستوثق من وجود مسدَّسه، فقد كان أعدَّ العُدَّة لأمره، وتوقَّع ختام مأساته، وخشي الوصول إليها بعد أن تلفظ الروح، فآثر السفر في الطائرة، كل ذلك شهد به إخوانه المُدرِّسون، وأورده النائب العام، وهذا بحذافيره صحيح.

ركب المتهم الطائرة، ولم يكن فيها غيره وغير مسافر آخر لم يُلقِ إليه بالًا، وارتفعت الطائرة في الفضاء وحلَّقت وحلَّق معها، فكر ذلك الذاهب إلى الموت أيُدركها قبل فوات الأوان؟ لو أسرعت الطائرة قليلًا! لكن ما بالها قد سُمِّرت في الجو؟ لو كان ألف جناح لما سبقت صوابه الطائر ولا قلبه المتلهف، وفجأةً حدث أمر عجيب، سمع صوتها جليًّا يلفظ

اسمه، فأحسَّ رجفة في بدنه ثُم شعر بعينيه تريان شيئًا من مادَّة لا علاقة لها بالأرض، شيئًا مرَّ كالشُّعاع الخاطف مخترقًا الطائرة، مصعدًا في السماء، في تلك اللحظة أيقن أنها أسلمت الروح، وكان هذا صحيحًا، فقد روى لي أهلُها أنها صاحت باسمه في اللحظة الأخيرة — وما أشكُّ في أنه سمع الصوت في الطائرة في عين اللحظة، وما أشكُّ في أن الشابَّ قد تبدَّل حاله، وهبط عليه سلام، وأحسَّ هو نفسه أنه من أهل الأبديَّة، وأنه لا حاجة به إلى استئناف السفر، فما شأنه بجثَّة هامدة فوق سرير؟!

إن روحها قد مرَّت به الآن، كأنها تدعوه أن يلحق بها في الحال، وأخرج الشابُّ مسدَّسه، وصوَّبه إلى رأسه وأطلق، وهنا تدخَّل القدر وهزَّ الطائرة هزَّةً عنيفة، فانحرف مجرى الرَّصاصة عن رأس المتَّهم إلى صدر المسافر الآخر الجالس خلف مقعده.

ذعر المتَّهم في أوَّل الأمر، ونسي أمره قليلًا، وبادر إلى المجني عليه يُسعفه، ولكن ضابط اللاسلكي شعر بالحركة، فنهض من مكانه وهُرع إلى المصاب الخطير الشأن، ورأى المسدَّس في يد المتَّهم، فلم يَبقَ عنده ذرَّة من شكٍّ، فانتزع آلة الجريمة من يده ووضعه تحت الحفظ، وفطن المتَّهم إلى الجريمة التي تُلصق به، وفكَّر لحظةً فوجد طريقها مؤدِّيًا إلى ما كان يروم، وأن الاعتراف بالقتل العمد يضمن له الموت الذي يبتغيه.

يا حضرات القضاة، هذه وثائقي في يدي، وليفتح النائب العام باب التحقيق من جديد ليتضح له أن هذا المتَّهم قد ضلَّله، وأنه يضع في هذا القفص قلبًا مجروحًا، كل أمله الآن أن يُدرك قرينته في السماء!»

وجلس المحامي بهدوء تاركًا القُضاة والنائب والحضور غارقين في شِبه ذهول، ولبث الصمت معزِّشًا على القاعة إلى أن سُمع فيها نشيج خافت، فالتفت القُضاة فإذا هم يرون المتَّهم مُطرقًا، وهو يُحاول جاهدًا أن يتجلَّد ويكتم ما به، وغالب نفسه إلى أن غلبته، وخانه هدوءُه الذي كان مثار العجب، وصاح في قاعة الجلسة بصوت متهدج: هذا المحامي كذَّاب مختلق، كل ما قاله كذب واختلاق، أنا القاتل! لقد قتلت عن عمد، قتلت عمدًا، اقتلوني! اقتلوني!

وأجهش بالبكاء.

وسالت عبراته على صفحةِ خدِّه كأنها تُسطِّر حيثيَّات الحُكم.

ميلاد فكرة!

– ما هذا الذي يهزُّ جدران رأسي؟
– فكرة.
– وما تريدين؟
– الخروج.
– الآن؟ في جوف هذا الليل، والناس نيام، والنُّعاس يغلق مني هذه الأجفان؟!
– نعم، الآن، إذا لم أخرج الآن فلن أخرج أبدًا.
– ألا ترين أني أتثاءب؟ وأني لا أكاد أتماسك؟! أوَلا تستطيعين انتظارًا حتى الصباح؟!
– لا أستطيع انتظارًا، الآن يجب أن أخرج.
– ولماذا اخترتِ لي هذا الوقت الذي أغرق فيه نومًا؟
– لست أنا التي تختار، لقد تكوَّنت في رأسك كما يتكوَّن الجنين في بطن أمه، ونضجت للنزول.
– وكيف لم أشعر بكِ من قبل؟! كل ما شعرت به أن رأسي فارغ كالقِربة المثقوبة.
– إني أتكوَّن على غير وعي منك منذ أمد بعيد، والآن قد تكوَّنت، وحان موعد خروجي.
– خروجك إلى أين؟
– إلى الدنيا، إلى الورق، انهض أيُّها الخامل وضعني على الورق، وانشرني على الملأ.
– يا لكِ من مغرورة! وماذا يجري للدنيا من خروج مثلك الآن؟!
– مَن يدري؟ ربما تغيَّر وجهها، وربما ازداد جمالها، وربما انقلب أمرها أخطرَ انقلاب!
– بكِ أنتِ؟!

– نعم، بي أنا، وليست هذه أوَّل مرَّة أفعل ذلك، فهذه الأهرام التي تُبصرها من نافذتك إنما هي فكرة، وهذه الكهرباء التي تُضيء حجرتك كانت فكرة، وهذا الراديو الذي يُسمعك صوت العالم هو فكرة، وهذه النهضات التي ظهرت في الأمم بدأت فكرة، وهذه الأديان التي سمَتْ بالبشر برقت فكرة، وهذا الفنُّ الذي نعمَت به الإنسانيَّة لمع فكرة، بل كل حضارة الآدميِّين على الأرض وليدة فكرة، وكل الفرق بين نوع الإنسان وفصائل الحيوان أن الفرد من الإنسان يلد الفكرة، والفرد من الحيوان لا يلد الفكرة، فقُم واطرح عنك الكسل، وافرح؛ لأن في رأسك فكرة.

– وهل أنا وحدي الذي في رأسه فكرة؟! أليست هنالك فكرة في كل رأس من رءوس هؤلاء الملايين من الناس؟

– نعم، ولكن قليلًا جدًّا من بينهم مَن تخرج له فكرة.

– إذَن قيمتك أن تخرجي.

– نعم، وأعيش، وهذا أقدَر أحداث الأرض، وإذا كان لك إلمام بالحساب فتناولْ قلمًا وورقًا وأنت ترى العجب، إن على الأرض أكثر من ألف مليون شخص، فإذا فرضت أن مليونًا واحدًا فقط يُنتج في كل قرن من الزمان فكرة، لكان في العالم مليون فكرة حيَّة في كل مائة سنة، وهذا لا يحدث أبدًا، فإن القرن الذي يُنتج عشر فكرات تعيش وتنفع الناس، يُسمُّونه عصر النهضة، أو العهد الذهبيَّ للبشريَّة!

– لا يكفي إذَن أن تخرجي من رأسي.

– لا، ليس هذا بكافٍ، إن الأفكار التي تخرج كل يوم من رءوس المُفكِّرين والشُّعراء والفنَّانين والعلماء كثيرة العدد واليوم — على الخصوص — قد تضاعف محصولها؛ لأن صناعة التفكير قد انقطع لها في العالم عدد وافر من مُحترفي الفكر يملئُون الصُّحف والكتب أفكارًا، يزعمون كلهم أنها كُوِّنت من زُبدة الخلود، وهي في أغلبها لم تُصنَع إلَّا من شيء كزُبدة الفطائر التي تذوب في الأفواه مع قدح الشاي كل صباح!

– كنت أحسب المُهمَّ مجرَّد خروجك من الرأس.

– المُهمُّ هو حياتي بعد ذلك.

– ربما كان المُهمُّ أيضًا ليس مجرَّد حياتك، بل طول هذه الحياة.

– صدقت! فقد أحيا فقط سنةً واحدة، كما تحيا البدعة أو «الموضة»، وهذا لي أسخف أنواع الحياة!

– كم سنةً تريدين أن تعيشي إذا خرجت من رأسي؟

– أكثر منك أعوامًا، على كل حال أضعافَ حياتك على الأقل، إني أتمنَّى أن أراك في التراب وقد نخر عظمك، وأنا في تمام صحَّتي واكتمال روعتي!

– لعنة الله عليكِ وعلى تمنِّياتكِ!

– أوَلا يسرُّك أن أعيش بعدك؟

– بل يسرُّني أن أعيش أنا بعدك ولو ساعة!

– وماذا تصنع بعمرك وقد ماتت أفكارك؟ وما طعم حياة الأب الذي فقد أبناءه، وعاش إلى آخر دهره وحيدًا؟!

– هذا حقًّا مؤلم، وتلك مصيبة مَن يُنجِب الأبناء، وما دام في إمكاني أن أمنع ميلادك، فلماذا لا أفعل؟ إن في خروجك متاعب.

– وفي خروجي أيضًا مزايا!

– ما هي هذه المزايا؟

– أن تراني مخلوقًا تامَّ التكوين، يُشبهك ويُذكِّرك بعيوبك، ويعيش أمامك مرآةً لطباعك، وخزانةً لصفاتك وفضائلك، واستمرارًا لوجودك، وقد يُعجب الناس وينفعهم، فيُرضي غرورك.

– حقًّا! غرورنا وحده هو الذي يسمح لمثلك بالخروج.

– ولهذا يحسُن بي الانتفاع بهذه الطبيعة فيكم، هيَّا أخرِجني!

– ولكنكِ لم تخبريني ما مصلحتك أنتِ في الخروج!

– ما أحمق سؤالك! أتستطيع أن تسأل خليَّة عن مصلحتها في الحياة؟! إن الرغبة في الحياة ملتصقة بذات وجودنا!

– أنتِ إذَن موجودة الآن في رأسي؟

– طبعًا، وها أنا ذي أصيح بك، وأُلحُّ طالبةً الخروج إلى الحياة.

– انتظري قليلًا، حتى أُحضِر قلمًا وورقًا.

– حذارِ أن تبطئ!

– وما الضرر؟

– أحسُّ أنفاسي تُوشِك أن تخمد، ونوري يُوشِك أن يخبو، لقد ناقشتني طويلًا واستنفدت قُوايَ، ونهكتني وأتعبتني قبل أن أُولد.

– يا لسوء الحظ! القلم نسيت موضعه، أمَّا الورق فلا يوجَد الساعةَ غير هذه الورقة على المائدة، وهي ملفوفة بها الفطائر التي أحضرتها لفطوري، أما وقد أيقظتني من نومي

اللذيذ، فلا أقل من أن أبدأ بالطعام، فلا نفع لرأس ممتلئ إذا كانت المعدة خالية، تجمَّلي بالصبر إذَن، وانتظري حتى نفرغ من أمر الفم، ثُم نُعنى بأمر العقل، وثقي أني سأُسرع ولا أجعلك تنتظرين طويلًا، وأثناء المضغ نبحث لك عن القلم الضائع، وها أنا ذا أبحث، وها هو ذا قلم فوق الخوان، لا بأس الآن من إخراجكِ أيَّتُها الفكرة، هلُمِّي، تكلَّمي، اخرجي، يا للعجب! ما لكِ؟ ما هذا الصمت؟ ما هذا السكوت؟ أين أنتِ؟! أين ثرثرتك التي أيقظتني؟ أيَّتُها الفكرة، انطقي! لا توقفي اللُّقمة في حلْقي! أين أنتِ؟ هل ذهبتِ؟ هل مُتِّ؟ وا أسفاه! لقد مُتِّ قبل أن تُولَدي.

نعم، ما من شك في أنها ماتت في رأسي قبل أن تُولَد، أتُراني أبطأت عليها؟ أتُراه ذنبي أم ذنبها؟ ما علينا، فلتذهب هي إلى أعماق جهنَّم! وأنا إلى نهاية الأكل، ثُم إلى فراش النوم! ليست هذه أوَّل مرَّة تصنع بي ما صنعت، ولست أنا أوَّل مَن يحدث له هذا، إنما هي فكرة تُولَد وتموت، أو تموت ولا تُولَد، كغيرها من ملايين الأفكار التي تهز رءوس الملايين من الناس ملايين المرَّات في ملايين اللحظات!

وجه الحقيقة

كيف عرفت أني أقطن هذا النُّزل؟

قلتها وأنا أقود صديقي وناشر كتبي إلى حجرتي، وقد سمعت صوته بالباب يسأل صاحبة النُّزل عني ويذكر لها أوصافي قبل أن يذكر اسمي، كأنما قدَّر في نفسه أني تسمَّيت في هذا البيت باسم مُستعار.

ولم يكَد يدخل الحجرة حتى أرسل نظرات مُستطلِعة إلى كل شيء حوله، وأبصر حقائبي الثلاث على ظهر خزانة الملابس وبعض الكتب على رأس الفِراش، ونظر إلى «الجراموفون» المفتوح فوق مائدة صغيرة، والقلم الرَّصاص المُلقى بين أوراق منثورة على مكتب في أحد الأركان، وإناء من البِلَّور الأزرق فيه بضع زهرات، فوقف لحظةً يهزُّ رأسه، ثُم جلس على مقعد قريب وهو يقول: هذا أنت حقيقة، تلك بعينها حياتك غير المُستقرَّة، أخبرني إلى متى التنقُّل من نُزل إلى نُزل، ومن فندق إلى فندق، وإخفاء مقرِّك عن الجميع، حتى عنِّي؟ لقد قابلني اليوم أحد الناس وسألني عن بيتك، فلما أظهرت جهلي صاح دهشًا: «رجل يُشار إليه بالبَنان، ولا يُعرَف له حتى الآن عنوان!»

– وأنت كيف عرفت عنواني؟

– تتبَّعت خُطاك ذات ليلة، أرجو أن تغتفر لي هذا الفضول، إنما أردت …

والتفت إلى المكتب والأوراق، ثُم أدار وجهه شطر باب مغلق يفصل بيني وبين الحجرة المجاورة وابتسم، وقال وهو يتنسَّم شيئًا بمنخاره الطويل: إني أشمُّ هنا رائحة قصَّة تُكتب!

– هنا قصَّة حقًّا، ولكنَّها لم تُكتب.

ونظرت على الرغم مني إلى باب الحجرة المجاورة وتنفَّست، ولحظني الناشر، فأسرع صائحًا في لهجته الحماسيَّة المُسرفة، وإشارته التمثيلية التي كلها تهويل: إنك قد كتبتها، إنا قد ظفرنا بكتاب العام! إننا قد نشرنا كتاب العام!

فوضعت إصبعي على شفتي أطلب إليه الصمت، وأرهفت سمعي ناحية الباب الفاصل، وإذا ضحكة رقيقة قد بلغت مسامعنا، فنظرت إلى صاحبي فإذا على وجهه إشراقة، ومرَّت لحظة ولم نسمع شيئًا، فالتفت صديقي إليَّ كالمأخوذ: صدقت!

– ثُم أشار برأسه الأصلع وشُعيراته القائمة في وسطه كأنه رأس هُدهد إلى ذلك الباب، وسأل في همسة: مَن هي؟

فقلت في غير وعي: ماذا يُهم؟

– حقًّا! ما دامت تستطيع أن تُوحي إلينا.

– آه أيُّها الناشر، بل أيُّها الخاسر! أنت الذي يُحيل أجمل عواطفنا الإنسانيَّة إلى هُراء يُباع ويُشرى، نعم، لو علمت أن كل ما أكتب لك وأنشر عندك منذ شهور إنما خرج من خَصاص هذا الباب! لقد كذبت عليك يومَ قلت لك إن «موزار» وحده هو الذي يرعى الآن فني بقيثارته السحريَّة الصافية، ضحكاتها الصافية هي أيضًا؛ تلك الطفلة التي لم تُجاوز العشرين، عهدي بقلبي دائمًا لا يُعلِّق إلَّا مَن تقاربني أو تكبرني في العمر، لأوَّل مرَّة في حياتي أهتمُّ لأمر طفلة تصغرني بكل هذه الأعوام، أتلك علامة الهِرَم؟

والتفت إلى مرآة خزانة الملابس، ونظرت إلى تلك التجاعيد التي برزت سطورها على صفحات الوجه، كأنها إنذار رسميٌّ من الزمن، ومضيت: لا، لن أكتب شيئًا، لقد سئمت هذه الحياة، أُريد مرَّةً واحدة أن أُحبَّ للحُب.

فصاح بي: تُحبُّ للحُب؟! وأنا أغلق حانوتي، وأبيع مطابعي، وأوقف مجلَّتي!

– اطمئن، لن يحدث ذلك أبدًا، وا أسفاه! لقد خرج أمري من يدي منذ أمد طويل، إني لم أخلق «مستهلكًا» للسعادة بالمعنى الاقتصاديِّ للكلمة، إنما أنا «مُنتج» فقط لهذا الصِّنف في السُّوق.

– طباخ «السُّمسم» لا يذوقه.

– إن المأساة الكبرى في حياتي اليوم أيُّها الصديق، هي أني لم أعد أُفرِّق بين العالم الخارجيِّ الحقيقيِّ وبين ذلك العالم الوهميِّ الذي أصنعه بالمداد والورق وأدفع به إليك وإلى غيرك من تُجار «الأحلام» وسماسرة «الأوهام»! إني لم أتبيَّن ذلك إلَّا اليوم، إني منذ سمعت من خلال هذا الباب صوت تلك «العصفورة» الجميلة التي يقولون لي هنا إنها «امرأة»، وهديل ضحكاتها الصغيرة، وأنفاسها الخفيَّة وسُعالها اللطيف، وأنا لا أنفكُّ أُقيم لها في رأسي تماثيل من ذهب لا «لزبائني»، ولكن لنفسي، وهنا المصيبة، منذ شهور وأنا أُدير «الجراموفون» لها هي، وأُوقن أنها لا بُدَّ مأخوذة مثلي بـ «موزار»، بل إني قد سمحت

لنفسي أحيانًا أن أتصوَّر أنها تتساءل: «مَن هذا الجار؟» ولقد كان بابي مفتوحًا ذات يوم، وكنت في ناحية من الحجرة فأبصرتها تمرُّ في الدِّهليز، فلمَّا اقتربتْ من بابي رفعت عينيها تنظر نظرةَ المُستطلِع.

عفوًا، كلمة «المُستطلِع» هذه لا تثقْ بصحَّتها كثيرًا، فهي من تقدير ذلك الرأس الذي يخلط الآن الصدق بالكذب.

على أني لم ألبث أن فتلت — كعادتي — من شعاع هذه النظرة العابرة سبائك من الأحلام، كل ذلك دون أن أُكلِّمها أو أعترض سبيلها، أهو خوف من مواجهة الحقيقة؟ أم استغناء عنها بعالمي الذي في رأسي؟ لست أدري!

إلَّا أني جعلت أرقب حياتها، ووجدت أحيانًا ما كاد يُخيِّب ظني، فهي امرأة متزوِّجة، وقد رأيت زوجها فتًى من أجمل الفِتيان، وهي مثال للكسل والتراخي والفراغ، فهي في نظري كأنها «دَوقة» لا تستيقظ في الصباح إلَّا قُبيل الظهر، ولا تنام إلَّا في الثانية بعد منتصف الليل، حياتها تسير على وتيرة واحدة؛ نهوض متأخر، ووقت يُنفق في الزينة، ومشاغل نِسويَّة تافهة، ثُم غداء تتناوله بمفردها، لماذا بمفردها؟ هذا ما عجبت له أوَّل الأمر.

ثُم يأتي زوجها من عمله عند العصر مع بعض أصدقائه، فيلعبون الورق أو يتجادلون فيما لا طائل تحته حتى المساء، فيخرجون جميعًا ولا تعود الزوجة مع زوجها إلَّا إذا انتصف الليل.

ولقد أدهشني في الليل أمر، هو الصمت العميق في الحجرة عقب عودة المرأة إلَّا من صوت كتاب تُقلَّب صفحاته من حين إلى حين، وقد كنتُ أقوم أحيانًا نصف قيام في فراشي فأُبصر نور حجرتها المجاورة ينفذ إليَّ من خَصاص الباب، ولا يسكت حفيف الكتاب وينطفئ النور إلَّا في الهزيع الأخير من الليل، وقد أيقنت من ذلك أن الرجل يقرأ كثيرًا، وأن امرأته لا شكَّ قد نامت منذ ساعات وتركته مستيقظًا تحت «الأباجور»، غير أني أنكرت كيف أني لم أسمع مرَّة واحدة صوت كلام، كأنما الغرفة لا تضمُّ غير شخصٍ واحد، ولا أكتمك أني وجدت وما زلت أجد مُتعة وسرورًا في تتبُّع أحوالها، ولعلَّ هذا يُفسِّر لك سرَّ انزوائي في النُّزل، لا أخرج إلَّا قليلًا.

إني أنظر الآن وهي تجري فيه حياتها فلا أسأم، بل النهر الضيِّق الصغير الذي تجري فيه حياتها فلا أسأم، بل إني لَأرى أيامي الآن عريضة عميقة زاخرة بأحداث وتفاصيل ومشاعر ومناظر قد لا يكون لها وجود إلَّا في رأسي، ومع ذلك، ما الضرر؟ ولقد أردت يومًا

أن أعرف عنها أكثر من ذلك بوسائل أخرى، فقلت لصاحبة النُّزل: «إنكِ حقًّا يا سيدتي تُقدِّمين لبطني أطيب الطعام، وتُعدِّين غرفتي أحسن إعداد، ولا يَنقصكِ إلَّا أن تقدِّمي كذلك مادَّة الغذاء لِقِصَصي وكتبي، فتؤدِّي لي وللأدب أجلَّ خدمة.»

فحملقت العجوز في وجهي وكأنها لم تفهم، فأبَنت لها عن قصدي، وسألتها أن تخبرني بأخبار القاطنين معي، علَّني أجد فيها بُغيتي، فلم يبدُ منها تحمُّس لهذه المهمَّة، وأدركت أن تقديمها إليَّ طبقًا جيِّدًا من «البفتيك» هو عندها أجدى وأجلُّ من تقديم «موضوع» كتابٍ خالد! وعندئذٍ فهمت أن تلك التِّيجان التي يضعها على رءوسنا أمثالك من الناشرين والمعجبين إنما هي شيء لا يبهر غيرنا نحن وغير أولئك الغافلين الذين استطعنا أن نُخدِّر أحلامهم بدخان الكلام العبق الكثيف.

ولكنها مع ذلك تحدَّثت إليَّ، وعلمت منها أن تلك الزوجة الصغيرة قد اقترنت منذ عامين بهذا الشابِّ الجميل دون أن يُعلِم بذلك أُمَّه المريضة بالقلب، وأن أُمَّه كانت تريده لإحدى قريباتها الموسرات، وهو يخشى على أُمِّه التي يُحبها أثر الصدمة لو علمت بهذا الزواج، فهو من أجل ذلك قد وضع زوجته في هذا النُّزل وهو ما يزال يقطن عند والدته، يُؤاكلها في الغذاء كعادته ويبيت عندها دائمًا كأنْ لم يحدث قطُّ شيء. عجبًا! إذَن الصغيرة هي التي تقرأ وحدها في الليل! ولقد صادفت أنا حقيقة الزوج عائدًا مع زوجته ذات ليلة، فما إنْ أوصلها إلى الباب حتى تركها وعاد إلى بيت والدته. إن مظهر هذا الزوج عجيب، إن هذا الفتى أقرب في تصرفاته إلى الخليل مع خليلته، ومع ذلك فإن تلك الزوجة تُحبه حُبًّا عظيمًا، وأنها تتألَّم، وقد بثَّت صاحبة النُّزل بعض همِّها؛ إن هذا الزواج الذي بدأ بالحُبِّ قد انتهى اليوم من ناحية الفتى إلى شيء من الفتور، وهي تخشى أن يكون هناؤها قد انقضى، وأن يكون شأنها شأن الوردة التي لا تعيش أكثر من يوم!

ولقد جاءتني صاحبة النُّزل ذات مساء وأنا أُدير «الجراموفون»، وحملت إليَّ «أسطوانة» قالت إنها للسيدة المجاورة، وهمست في أذني إن السيدة تحب سماعها لأنها تُذكِّرها بحال كحالها، فقلَّبت «الأسطوانة» في يدي فإذا هي أنشودة المُغنِّية الباريسيَّة «داميا»، مطلعها:

فقدت شبابي بفقد حبي.

فلم أكتم خيبة أملي لتفاهة هذه الأغنية إلى جانب تلك الكنوز من الموسيقى العُليا التي تُسمع من حجرتي، ولكنِّي ومع ذلك أطلقتها من فرنوغرافي «مرَّةً واحدة من أجلها، ولم

أجسُر على إعادة الكَرَّة، إني ما زلت أحتفظ بأسطوانتها، ها هي ذي في الخزانة الصغيرة، غير أني لا أُحبُّ أن أُديرها؛ لأني لا أرى من الذَّوق أن أذكرها كثيرًا وهي في مُقتبل الشباب بهذا المصير المُخيف الذي تخشاه، لم أجرؤ على ذلك، وقد تقول إن هذه الأغنية تُخيفني أنا وتحزنني لأنها تُذكِّرني أنا أيضًا بحالي، وهي في حقيقة الأمر لا تنطبق إلَّا عليَّ، وربما كان في هذا شيء من الحقيقة.

قد تسألني بعد ذلك أيُّها الصديق: ما موقفي الآن بين كل هذا؟ لا أستطيع أن أجيبك! كل ما أعرف أن هذه المرأة الصغيرة لها عليَّ اليوم وعلى عملي تأثير واضح، وأن الصفاء الذي يجري بين السطور التي تُنشر لي هذه الأيام إنما ينبع من ضحكاتها الصغيرة الرقيقة التي تُشبه ضحك الأطفال، إني أُفكِّر في أمرها كثيرًا، ويُخيَّل إليَّ أنها على الرغم من تفاهة حياتها وسخف المُتَّصلين بها لا بُدَّ أن يكون في نفسها جانب ذو قيمة، أتُراها تُعْنى وتُصغي إلى كل تلك الموسيقى الجديدة التي تنطلق من حجرتي؟ إن ما يُخيِّب أملي فيها أنها لا تجلس منفردةً ساعةً واحدة، فإن لزوجها أصدقاء من حُثالة الناس لا ينقطع لهم وابل طول النهار يُحيطون بها كما يُحيط الذُّباب بشيء حُلو، وينجذبون إليها كما ينجذب الإنسان إلى كل شيء جميل، فلا يتركونها لحظةً منفردةً سواءً حضر زوجها أو غاب، وليس عندهم — كما قلت — إلَّا لعب الورق والكلام في مراقص الليل و«الكاباريهات» التي يقودون إليها هذه الفتاة كل ليلة، فلا تعود كما ذكرت لك إلَّا بعد منتصف الليل.

أمر واحد يُنقذ هذه المرأة في نظري، هو مطالعتها الليليَّة الطويلة، فهي عندي كماء مُقدَّس يُطهِّر كل شخصيَّتها الفارغة، ويغسل كل ذلك السخف الذي يبدر في حياتها بالنهار، هذا أيضًا أخشى فيه مواجهة الحقيقة، وأخاف أن أعلم يومًا أن هذه القراءات الطويلة إنما هي في «ميشيل زيفاكو» و«أرسين لوبين» وأنواع أخرى قد لا أعرفها من حُثالة الكتب.

إني أُشفق على هذه الطفلة من أشياء كثيرة، وأعرف تلك الأخطار التي تُهدِّد الزوجة المُهمَلة، ولقد سمعت بأذني حوارًا دار بينها وبين صديقٍ لزوجها انفرد بها يومًا وقدَّم إليها مبلغًا من المال وظنَّ أنها في حاجة إليه، فصاحت به: «إنك تنسى الاحترام الواجب لي!» ولقد أعجبني عندئذٍ موقفها، ورأيت منها نفسًا تُجاهد جهاد الأبطال لتنجو من مزالق الطريق الذي تدفعها إليه الظروف، لعلك تُعجب من خوفي عليها هذا الخوف، نعم، لَكَم أتمنَّى لو أجعل من هذه الصغيرة إنسانًا ذا قيمة، وأن أُوجِّه تيَّار حياتها إلى وجهة سامية، وأن يستكشف فيها زوجها يومًا كنزًا لا يُقوَّم بمال، لو أن مثله يستطيع أن يستكشف

شيئًا، إن لم يفعل فعلَّها هي التي تفتح عينيه وتُنشئُه نشأةً أخرى، تلك مشاعري نحوها، إن عواطفنا لا يُمكن أن تكون إلَّا جميلة نبيلة نحو مَن يُوحي إلينا بشيء جميل نبيل، لقد فكَّرت كيف أستطيع أن أُهذِّب هذه الصغيرة من حيث لا تدري، وودِدْت لو أستطيع أن أكتب إليها، فقد تنفع كتاباتي هذه النفس المسكينة، ولعلَّ مخاطبتي إيَّاها تُخرِج من نفسي ثروة قد تنفعني وتنفعك بما لم تكُن تحلم به يومًا، ولقد سطرت لها فعلًا هذه الرسالة. أأقرؤها لك؟ استمع: «سيدتي، أيُمكنني أن أسألكِ معروفًا؟ اسمحي لي أن أكتب إليكِ من حينٍ إلى حين، لا تردِّي على رسائلي، أعيديها إليَّ فقط بعد برهة من الزمن، رسائلي هذه وحدها هي التي قد يكون لها عندي كل القيمة، لماذا اخترتك بين مئات لهذه المهمَّة الغريبة؛ أولًا: لست أنا الذي أختار تلك التي تستطيع أن تُسيِّل نفسي على الورق، ولا بُدَّ لنفسي أن تسيل لأن بضاعتي التي أُتاجر فيها هي إحساسي، إن دموعي وضحكاتي ومصائبي تُدرُّ أحيانًا عليَّ الذهب، وربما شيئًا من المجد، هكذا خُلق ذلك الكائن العجيب اللعين الذي يسمونه الفنان، أمَّا شخصك وما له عندي من احترام فلا دخل له في الموضوع بحال.» لم أرسل إليها هذا الكلام لحسن الحظ، فقد قلت في نفسي بعد ذلك: ماذا يعني هذه المرأة من أمر الذهب الذي سأجنيه، والمجد الذي قد تضحك من مجرَّد اسمه؟ ومَن يضمن لي أنها تُحمِّل خطابي المعنى الذي أردُّ به أنا؟ مرَّةً أخرى شعرت أني لم أعد أميِّز الحدود الفاصلة بين عالم الحقيقة وعالم الخيال، إن هؤلاء الأشخاص الحقيقيِّين الذين يعيشون إلى جواري راضين بحياتهم التي أُسمِّيها تافهة، وهم ولا شك هازئون بي، إذا علموا أني أريد أن أُغيِّر مجرى أيامهم … إنهم ليسوا مخلوقات تتحرَّك على الورق طبقًا لمشيئتي، وتتصرَّف تبعًا لمنطقي، ولكنَّهم ناس لا سبيل لي على حياتهم، ينبغي لي أن أترك هؤلاء الناس وشأنهم، ألا ترى معي أيُّها الصديق أنه ينبغي لي أن أترك هؤلاء الناس وشأنهم؟!

فأفاق صاحبي من تأثير ذلك الحديث الطويل، وقال: كيف تتركهم وشأنهم والقصة لم تتم؟

– لا أُريد أن تتمَّ، يجب أن تقف عند هذا الحد.

– نحن لم نعرف بعدُ عن هذه المرأة إلَّا ما صوَّرته لك مخيِّلتك.

– يكفينا هذا، إنها لَمُخاطرة أن نعرف صورتها الحقيقية، مخاطرة باهظة الثمن، فالزم الصمت، ولا تُسكت تلك القيثارة التي تسيل على أنغامها نفسي؛ فإن الطمع قد يُذهب عنك حتى تلك السطور التي كنت تنالها مني.

وفي اليوم التالي، في نفس الساعة، عاد إليَّ صديقي الناشر، وجلس أمامي في نفس المجلس من حجرتي، وأطرق قليلًا، ثُم قال لي بصوت خافت: هل من جديد؟

وانبعثت من عينه نظرة إلى الباب الفاصل، فبادرت قائلًا: إنها ليست هنا، لقد خرجت منذ قليل في صُحبة تلك الزُّمرة.

فاطمأن في كرسيِّه، وأرسل صوته على طبيعته طالبًا إليَّ أن أمضي في الحديث عنها.

– ماذا تُريد أن تعلم مني أكثر مِمَّا علمت؟ إن حياتي الآن جميلة على الرغم من كل شيء، إنك لَترى وتلحظ أن إنتاجي غزير وخيالي مُتَّقد، ولا ينبغي لي أن أُغيِّر هذه الحياة الآن.

إني على كل حال غير قدير على ذلك على الرغم من ... ولكنِّي مع ذلك ...

آه أيُّها الصديق! يجب أن أُفضي إليك بشيء خطير.

لقد كذبت عليك أمسِ؛ إذ قلت لك إني لم أُكلِّمها بعد، الحقيقة أني خاطبتها.

– خاطبتها؟

– منذ يومين دخلت المطبخ أطلب فنجانًا من القهوة، فرأيتها في «روب دي شامبر» ياباني إلى جانب الحوض تضع أزهارًا صغيرة في إناء، وتصبُّ عليها ماءً من الصنبور، وتُحادث صاحبة النُّزل العجوز بالإيطاليَّة، فانحنيت برأسي انحناءةً خفيفةً مُحيِّيًا، ورأيت أن أنتهز الفرصة للكلام، فبادرت أسأل في دهشة: «سيدتي، أتعرفان الإيطالية؟» فقالت العجوز: «أتكلَّمها فقط، ولا أكتبها ولا أقرؤها، أمَّا السيِّدة الصغيرة فتعرفها تمامَ المعرفة.» وعندئذٍ أجابت الصغيرة: «نعم، إني تعلَّمتها في المدرسة، وأعرفها تمامَ المعرفة.» هنا لست أدري ماذا دفعني أن أقول للصغيرة: «أتأذنين لي في أن أُكلِّفك ترجمة رسالة صغيرة أريد أن أبعث بها إلى موسيقيٍّ إيطاليٍّ كان قد وضع ألحانًا لرواية لي؟» فقالت للفور في أدب: «بكل سرور! اكتب الرسالة بالفرنسيَّة، وأنا أنقلها إلى الإيطالية.» ولم أستطع أن أُحادثها أكثر من ذلك، فقد حملت آنيتها وحيَّت برأسها تحيَّةً خفيفة كلها تحفُّظ، وانصرفت إلى حجرتها وتركتني في مكاني كالتِّمثال، وأفقت من دهشتي وعدت في الحال إلى حجرتي، وقد نسيت أن أطلب القهوة التي كنت قد ذهبت إلى المطبخ من أجلها، ولكن أيُّ قهوة؟ لقد أحسست أني ظفرت بغنيمة لا تُقدَّر بمال، إن بيني وبينها اليوم صلة، لا أقول وثيقة، ولكنَّها على أيِّ حال تُبشِّر بخير، فهي ستقوم لي بخدمة، لقد وعدت، وعندئذٍ يجب أن أُقابل الجميل بالجميل، وجعلت أُفكِّر فيما ينبغي أن أُقدِّم إليها أو أصنع من أجلها شكرًا على

خدمتها، أُهدي إليها كتابًا من كتبي أو أشتري لها تحفة صغيرة تذكارًا لما قامت به من أجلي، أو أن أدعوها، كلا، هذا كثير، ولِمَ لا أدعوها إلى عشاء ساهر مع زوجها وصاحبة النُّزل؟ كل شيء عندئذٍ جائز، وإن المجال مُتَّسع أمامي، وليس لي إلَّا أن أختار، المُهمُّ هو أنها قد بدأت بتقديم خدمة لي، وجلست من فوري إلى مكتبي أكتب الرسالة بالفرنسية، ولكنْ أيُّ رسالة؟ إن هذا الموسيقيَّ الموهوم ليس إيطاليًّا، الواقع أن هناك موسيقيًّا مصريًّا أرسل إليَّ عدَّة صفحات من نوتة موسيقيَّة خاصَّة برواية لي لأطَّلع عليها وأُبدي رأيي فيها، ولكن ماذا يمنع من افتراض أن هذا الرجل إيطاليٌّ لا يعرف غير الإيطالية؟ فلأكتبنَّ الرسالة وأدفعها إلى الصغيرة لترجمتها كما اتفقنا. وتناولت القلم الرَّصاص وخطَّطت على الورق خطابًا بسيطًا بريء اللهجة، لست أُنْكِر أن عواطفي تركت بعض الأثر بين السطور، ولكن ذلك شيء لا يلمحه أحد غيري، إن مجرد تصوُّري أن الصغيرة ستقرأ هذا الكلام، جعل نفسي تخرج عن طوعي وتدخل متلصصة في هيئة عبارة أو عبارتين تسيلان رقَّةً وعذوبة، إني لن أُريكَ هذا الخطاب الآن، ومع ذلك انتظر، لِمَ لا أقرؤه عليك الساعة؟ إنه كما قلت لك خطاب بريء، وليست لي الجرأة أن أكتب أكثر من ذلك، وليس فيما أرى من حسن اللباقة وحسن التصرُّف أن أكتب غير هذا، ها هو ذا، اسمع:

عزيزي المايسترو، وصلني جزء من الألحان الموسيقية التي وضعتها لروايتي، وقد دُهشت قليلًا؛ إذ وجدت الغناء فيها غناءً على الموسيقى الخالصة، إن الغناء ليس إلَّا الصوت الآدمي، وإن الصوت الآدميَّ الجميل لَيستطيع أن يسحر الناس بنفسه من غير حاجة إلى مُلحِّن، لقد سمعت ضحكات قصيرة لغادة صغيرة لا تقل في عذوبتها وفي رقَّتها عن ضحكات الطفل الإلهي «موزار» في قطعة «المينويتو»، ولكن الأوركسترا في التلحين هو الجانب الذي يشرح ويُفسِّر العمل بأكمله، وإني لَأرى التفسير الموسيقي الخالص قليل المقدار في هذه الصفحات التي بعثت بها إليَّ، في إمكانك مع ذلك أن ترتاب في صحَّة حُكمي، إني لست أُنكِر أن بعض الأنواع — ولا سيَّما الأشكال والقوالب — ما زالت تُفلت من نطاق إحساسي الموسيقيِّ، يجب أن يبلُغ الإنسان من الثقافة ذروة هائلة، وفي سلامة الذَّوق درجة عالية، حتى لا يُخطئ القيَم الصحيحة في الفنِّ والجمال، إن الجمال إله لا يكشف قناعه لكل الناس، إن رأيك الأخير مع ذلك هو ما سأنزل عنده، ولك تحيتي.»

وطويت هذه الرسالة مصحوبةً بالنوتة الموسيقيَّة حتى لا تظنَّ الجميلة أن الأمر من أساسه مختلق، ووضعت كل هذا داخل غلاف كبير من الورق الشفاف، وفتحت بابي أنتظر مرورها في الدِّهليز أو الرَّدهة فأُسلِّمها ذلك، وشُغلت بعدئذٍ بعملي وفنوغرافي؛ أسمع تارةً أنغام «موزار» الراقصة في جوِّ الحجرة، وأقول في نفسي مبتهجًا: «إنها الآن، ولا شكَّ، تسمع خاشعةً باسمة.» وحمَّستني كل هذه الأفكار في ذلك اليوم للعمل، فأمسكت قلمي وغرقت في سيل وحي غزير، وملأت صفحات من كتاب جديد أعمل فيه، ومقالات مطلوبة للمجلات، وإذا الساعة التاسعة تدقُّ، وإذا الصغيرة قد خرجت من حجرتها بملابس الخروج، وفي زينة زادتها جمالًا على جمال، ويمَّمت شطر الباب الخارجي، فأسرعت واتجهت إليها بالمظروف قائلًا لها: «إن الرسالة داخل هذا.» وشكرتها، فتناولت مني المظروف وعادت به إلى حجرتها، فوضعته فيها وخرجت لسهرتها، ومكثت أنا في مكاني من حجرتي طول الهزيع الأوَّل من الليل أكتب وأنتظر أَوْبتها، حتى كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فعادت في موعدها المُتأخِّر، وسمعتها تدخل حجرتها، على أني لم ألبث أن دُهشت وخفق قلبي سرورًا! ذلك أني أصغيت في هدوء الليل، فإذا بي أسمع صوت الغلاف الشفَّاف وله خشخشة واضحة يُفتَح في عجلة ولهفة عقب اجتيازها عتبة بابها، وليس من شكٍّ لديَّ في أن هذا أول ما فعلت عند دخولها حجرتها، فهي لم تخلع ملابسها ولا معطفها ولا حتى قُبعتها، كأني بصبرها النافد لا يريد أن ينتظر ثانية، وكأني بها، مدفوعةً بحُبِّ استطلاع، غريب، أو لعلي أنا أُسرف في الخيال والظنِّ والافتراض. وقولي الآن — كما ذكرت لك — لا يعتمد عليه كثيرًا، فما أبعد المُحبَّ عن تصوُّر الحقيقة كما هي، إن في رأس كل مُحبٍّ يدًا مُغرضة تُصوِّر الأشياء كما يريد قلبه أن تكون، على أن الواقع الذي لا غُلوَّ فيه هو أنها فضَّت غلافي وهي بملابس الخروج، إذ لم تمضِ أيُّ فترة بين اجتيازها عتبة حجرتها وبين سماعي خشخشة الغلاف، وأصغيت وأنا مُعلَّق الأنفاس، ومضت لحظة سكون ما شككت في أنها اللحظة التي استغرقتها مُطالِعةً الرسالة، وإذا بي أسمع الخشخشة من جديد كأنها الرسالة تُدَسُّ في غلافها، ثُم وُضع كل هذا في مكانه، وسكن الصوت إلَّا من صوت خطواتها في الحجرة وصوت خزانة ملابسها تُفتَح وتُغلَق، وصوت خلع ملابسها ودخولها فراشها.

وأرهفت الأذن علَّني أسمع ما ينبئُني بعودتها إلى المظروف لتعمل، لتبدأ في الترجمة، فلم أسمع غير حركة تقلُّب صفحات جريدة أو كتاب، فعلمت أنها تقرأ في سريرها تحت «الأباجور» قبل نومها كالمعتاد، فظللت ساهرًا حتى رأيت نورها يُطفأ من خَصاص الباب الفاصل، وكانت الثانية بعد منتصف الليل، ولم يبقَ لي دافع على السَّهر.

فطويت ورقي وأطفأت نوري ونمت، وفي الصباح استيقظت سعيدًا راضيًا، وارتديت ثيابي وأنا أُصفِّر بفمي وأترنَّم وأُكلِّم المرأة بصوت خافت، فهي ما زالت نائمة وأستار نوافذها ما زالت مُسدَلة، وخرجت لشأني كعادتي، ورجعت عند الظهر في ميعادي، ولم أكَد أدخل غرفتي حتى وقع بصري على مظروفٍ فوق مكتبي، فأسرعت إليه أفحصه، فإذا كل شيء فيه؛ الرسالة الفرنسية والنوتة الموسيقيَّة كما كانتا، وليست هناك ترجمة، وسمعت العجوز صاحبة النُّزل صوت أقدامي، فجاءت إليَّ مسرعة تقول: «إن السيدة الصغيرة تعتذر وتأسف لعدم استطاعتها القيام بما طلبته منها.» فلم أجد ما أُجيب به غير قولي: «لا بأس» وذهبتْ المرأة وتركتني وقد تهدَّم كل ذلك البناء الذي شيَّدته في رأسي في مثل لمح البصر.

وما بلغت في حديثي هذا الحد، حتى رأيت وجه صديقي الناشر تغيَّر، وعَلَته كآبة مُظلمة، ورأى سكوتي عن الكلام، فقال من حلْقٍ جافٍّ: وبعد؟

– لا شيء، انتهى الأمر كما ترى، على أني فكَّرت طويلًا، وتساءلت: لماذا تصرَّفت الصغيرة هذا التصرُّف؟ لماذا على الأقلِّ لم تُسلِّمني مظروفي يدًا بيدٍ كما سلَّمته لها، وتعتذر إليَّ بنفسها؟ أكثر من ذلك، لقد صادفتها بعدئذٍ في الدِّهليز، فكانت تميل عني بوجهها وتجعل كأنها لم ترَني، وتُسرع في الابتعاد دون أن تُشير بكلمة إلى موضوع الرسالة، بل دون أن تلفظ حرفًا أو تحني رأسها بتحيَّة، لقد انقطعت كل صلة بيننا، حتى تلك الصلة الرسميَّة العاديَّة التي يفرضها الأدب واللِّياقة.

وهنا مدَّ صديقي بيده إليَّ قائلًا: أرِني هذه الرسالة!

فناولته إيَّاها، فأمعن النظر في عباراتها، فقلت له: أتُراها فهمت منها ...؟

– مُؤكَّد، إن عبارتك التي تصف بها ضحكات الغادة واضحة وضوحَ النهار.

– لكن لماذا ظنَّت أني أعنيها هي بالذات؟! إن هذه الصفات شيء استكشفته أنا سرًّا، ولا يعلم به غيري وغيرك، فكيف تعلم هي أن لها ضحكات رقيقة!

– يا عزيزي! أهنالك امرأة تجهل مواضع الحسن فيها؟

– آه يا صديقي! إني كنت سيئ التصرُّف في هذا الأمر، وقد ظهرت في عينها مغازلًا من النوع المُبتذَل.

فأطرق صاحبي مُفكِّرًا، وقال: شيء يؤسَف له! وعلامَ عزمت؟

– على الرحيل.

قلتها في هدوء وحزن، فرفع صاحبي في الحال رأسه: الرحيل؟!

– ما من حلٍّ إلَّا هذا، هذا هو الختام الطبيعيُّ لما حدث، إن من الغلطات ما ندفع ثمنه غاليًا، لقد قلت لك بالأمس ينبغي أن يَقنَع أمثالنا بعالم الأوهام، فلم تقتنع بقولي، ها هي ذي الخطوة الأولى خارج عالمنا، أتُعجبك هذه النتيجة؟ إن إقامتي الآن في هذا النُّزل أصبحت مستحيلة، فإن من الشَّاق على نفسي أن يذهب اعتباري من نفس هذه الصغيرة، وهي بعدُ لم تعُد تُوحي إليَّ بشيء، ها هي ذي الأوراق بيضاء، ولم أكتب شيئًا منذ وقع هذا الأمر، لقد أنذرت العجوز بإخلائي الغرفة آخرَ هذا الشهر، فاغتمَّت ووجمت وحاولت أن تعرف السبب، فأبديت عذرًا واهيًا، فسكتت على مضضٍ ولكنِّي أنا أشدُّ منها غمًّا وحزنًا على فراق هذه الغرفة، لن أنسى أني كتبت في ظل هذه المرأة الصغيرة صفحات جميلة، إن ما يُخيفني هو أن ينتهي كل هذا الوهم الجميل بهذه السرعة، وأن قلبي الذي لا يستيقظ إلَّا مرة كل عشر سنوات يعود هذه المرة إلى صمته وظلامه، وهو لم يكد يصحو ويخفق ويفرح، وكم في العمر من عشرات السنين؟ وما أمرَّ انتظار أعوام أخرى أجد فيها وقد لا أجد تلك التي تهزُّ نفسي وتوحي إليَّ! إنك أيُّها الصديق لن تتصوَّر مقدار أسفي وهمِّي، أتظن أني مستطيع الكتابة هذا العام في غرفة أخرى وقد اعتدت الحياة في كنف هذه الصغيرة؟ كم من الزمن ينبغي أن يمضي قبل أن أُروِّض نفسي وقلبي على العمل في مكان آخر لا أسمع في جوِّه تلك الضحكات؟! تُحدِّثني نفسي أحيانًا أن أبقى على الرغم من كل شيء، إن حياتي الآن كما قلت لك الساعة جميلة على الرغم من كل شيء، وحتى إن لم يكن الأمر كذلك، فإني على أيِّ حال غير قدير، نعم! يا أخي إني أحسُّ تمامًا أني غير قدير على تغيير هذه الحياة الآن، ولكن مع ذلك ينبغي لي أن أرحل، إن نفسي ليست هيِّنة عليَّ، وإن كرامتي فوق كل اعتبار، فلنذهب أيُّها الصديق، ينبغي أن تنصح لي بذلك، لقد أنذرت بالإخلاء، وإني أعرف نُزلًا آخر، وكفى.

وأطرق صديقي، ولم يُجب.

ومرَّت الأيام ورحلت إلى نُزل آخر، هادئ كل الهدوء، ليس فيه غير حجرتين؛ إحداهما التي قطنتها والأخرى يقطنها من زمن شيخ وقور كان في شبابه، كما عرفت عنه، سكِّيرًا مدمنًا، ثُم تاب وأطلق لحيته وأمسك بسبحته وأصبح عضوًا بارزًا في جمعية لمنع المُسْكِرات، وكان بيننا جدار غير سميك أسمع من خلاله سعاله، وأقول في نفسي: «سبحان الذي قلب الضحكة الرقيقة سعالًا خشنًا!»

نعم، لم تزل الضحكة الرقيقة ترنُّ في أذني، وصورة المرأة الصغيرة تتراءى لعيني، لم أزل في ظلِّ ذلك الحُسن أعيش، وفي كنف الجمال المُتدثِّر بطُهره وبراءته وطفولته أعمل، وفي ذكرى الجوار القديم بلحظاته السماويَّة أستمطر الوحي والإلهام.

وجاءني صديقي الناشر في مقري الجديد، وما كاد يجلس ويمد منخاره الطويل إلى جدار الحجرة المجاورة متشمِّمًا متنسِّمًا، حتى سمع صوت السُّعال الخشن، فأشاح بوجهه في الحال صائحًا: أعوذ بالله!

– نعم أيُّها الصديق، هذا ما صرنا إليه!

قلتها مُتنهِّدًا.

وعاد صديقي ينظر إلى جدار الحجرة المجاورة مشمئزًّا وهو يقول: أظن أن خيالك هذه المرَّة لن يستطيع أن يصنع شيئًا بهيجًا من هذه الحقيقة المُرَّة!

– فقلت له: ومتى كنتُ أستطيع أن أصنع من الفسيخ شربات؟

فقال باقتناع: حصل، جارتك الجميلة صاحبة الضحكة الرقيقة، لقد عرفتها يا سيدي.

– عرفتها؟!

لفظتها في صيحة دهشة وفرح وحب استطلاع، فانطلق صاحبي يقول: نعم عرفتها وجالستها ورأيتها رؤيةَ العين، اسمع يا سيدي الحكاية كما حدثت بالضبط: دعاني تاجر الورق الذي أُعامله إلى سهرة في «كاباريه»، وهو رجل مليء مرح «بحبوح»، فما كدنا نفرغ من العشاء حتى أقبل شابٌّ وسيم يصحب شابَّة في مقتبل العمر، أجلسها إلى جوار التاجر الموسر وهمس في أذنه بكلام، ثُم انصرف وطلب لها صاحبي التاجر مشروبًا، ثُم جعل يُغازلها تارةً ويُحادثها تارةً حتى تطرَّق الحديث إلى سكنها، فقالت: «كل شيء إلَّا السكن، فهي تقطن حجرة في نُزل لا غبار عليه، صاحبته شديدة الحرص على سُمعته، وسُكَّانه في غاية الجدِّ، وجارها المُلاصق بالذات رجل محترم الهيئة كأنه فيلسوف أو أستاذ، لا تدري، ولكنَّه يُخيفها بنظراته الغريبة، ويُصدِّع رأسها طوال الوقت بموسيقى جدِّية من «فنوغرافه» لا تفهم منها شيئًا، فما من مرَّة سمعت رقصة تانجو أو رومبا أو سمبا، بل موسيقى تُكسِّر الدماغ وتغمُّ النفس؛ لعنة الله عليه من جار سمج! هكذا قالت بالحرف، ولا تؤاخذني! وعندئذٍ تدخلَّت وذكرت لها اسم النُّزل وعنوانه، فأذهلتها المفاجأة، وقالت: «كيف عرفت؟» فقلت لها كالمُخاطب لنفسي: «هو أنتِ!» واستدرجتها في الحديث وعرفت كل شيء عنها وكل ما خفي عليك منها، إنها ليست إيطاليَّة يا عزيزي، بل هي نوع من

تلك الأنواع المختلطة المولَّدة الغامضة الجنسيَّة، التي توجد في مصر ولا يُعرَف لها أصل ولا فصل، قالت إن أبويها المرحومَين عاشا في أزمير زمنًا ثُم نزحا إلى بلد آخر لا تذكر اسمه، أمَّا هي فقد وُلدت في إحدى حارات القاهرة، وليس لها لغة أصيلة، بل هي وُجدت ونشأت في بيئة ترطن لغات جميلة بالسماع والتواتر دون المعرفة الأكيدة، فهي تتكلَّم العربية والرومية والإيطالية والفرنسية، ولا تتقن إحداها قراءةً أو كتابةً، وهذا هو سرُّ إعادتها الغلاف الذي أرسلته أنت إليها، قالت: تصوَّروا هذا الجار المجنون الذي يُرسل إليَّ نوتة موسيقية وخطابًا فرنسيًّا لأُترجمه إلى الإيطالية! أكان يظنُّني معلمة في مدرسة؟!» أمَّا مطالعاتها الليليَّة فلم تكن في كتاب أدبيٍّ أو حتى في قصَّة من القصص، بل كانت في برامج سباق الخيل الذي اعتادت المراهنة فيه بما يصل إلى يدها من نقود، ثُم في مجلَّات الأزياء و«الموضات» المُصوَّرة، وهي تعيش بمفردها لأنها وحيدة مقطوعة؛ لا أهل لها ولا زوج، أمَّا ذلك الذي زعمت أنه زوجها فهو، ولا تؤاخذني، «قوادها»، وقد اخترعت حكاية زواجه ومبيته عند والدته المريضة بالقلب ... إلخ! لتُموِّه على البوليس وعلى صاحبة النُّزل حتى لا تزدريها أو تطردها، وكانت تتكلَّم وتضحك ضحكتها التي تُسمِّيها رقيقة وهي تمد فمها بـ «سيجارة» إلى فم التاجر الموسر لتُشعِلها من سيجارته، وأنا أتأمَّل وجهها بألوان المساحيق، ولكن الطِّلاء الثقيل لم يستطع أن يُخفي آثار جُدَريٍّ قديم قد أحدث ثقوبًا عميقة في الأنف والخدَّين والجبين، قلت لي: إنها حسناء فجعلت همِّي أن أبحث عن ذلك الحُسن، لا يا عزيزي، إنه خيالك كان، ولا شكَّ، أقوى من كل طِلاء يمكن أن تكتشفه أبرع مصانع التجميل! وكاد الليل ينتصف، فمال التاجر على أذن المرأة وهمس لها بكلمات فأشارت برأسها علامة الإيجاب والقبول، وبادرت تلمُّ أطراف ثوبها استعدادًا للقيام، لم تنسَ أن تُخرِج مرآتها من حقيبتها، وتُعيد صبغ ما انطمس بفعل الشراب والتدخين من أحمر شفتيها، وغمز لي صاحبي التاجر بعينه غمزًا فهمت معناه ومرماه، فأشرت له بيدي علامة النَّفي والزُّهد، ونهضنا، وشكرته على سهرته ودعوته وتركته عند الباب لأنصرف إلى بيتي، ومضى هو والمرأة الصغيرة وذراعها تحت إبطه إلى سيارة تنتظر لتحملهما إلى حيث يُكمِلان السهرة على الوضع المُتَّفَق عليه.

وانتهى صديقي الناشر من كلامه والتفت إليَّ، ولست أدري هل لَحظ شحوب وجهي! ويبدو أنه انتظر مني تعليقًا على حديثه، ولكنِّي خفت أن أتكلَّم فيخونني صوتي، فأطرقت وتشاغلت بقلم في يدي جعلت أعبث به على ورقة أمامي، إلى أن أحسست نظراته تُلاحقني

وتكاد تكشف ما خلته قد ظهر على وجهي من انفعالات مُخفاة، ولم أجد بُدًّا من أن أتفوَّه بشيء، فتحاملت على نفسي آخرَ الأمر، وحاولت جاهدًا أن أجعل صوتي هادئًا، وأن أُجرِّد نبراته من كل غضب وعتب وحزن ومرارة، ولكنِّي على الرغم من كل ذلك لم أشعر بنفسي إلَّا وأنا أصيح به: لماذا جئت تقول لي هذا الكلام؟!

هنداوي